روايات عبير



مارغريت واي

صرخة البراري

١ - حوار مع الأرض

الطائرة تحلق بهم الآن فوق بلاد «كيمبلي» على بعد ثلاثة آلاف ميل الى الجنوب الغربي من مقاطعة «كوينزلاند». الارض الممتدة تحتهم تحتضن في ترابها كل امجاد وعظمة القارة «الاسترالية». بلاد قديمة تشهد تاريخها العريق حقب ملايين الشموس قبل أن يطأها الانسان.

وتسارعت خفقات قلب «كولين». فالطبيعة حولها كانت تحمل معنى خاصاً يتجاوز الجمال الظاهري، للارض الحمراء المتمردة، الغارقة منذ الابد في نار

الشمس تأثير بالغ عليها يشعرها بالحياة تضج في عروقها، والحياة تسري في شرايينها. هذا عدا ذلك الاحساس العميق بالانبهار في روعة الطبيعة التي تجمع بين القساوة والحيوية. ظلال الالوان المتموجة بين الاصفر والبرتقالي الاحمر تجتمع كلها في شعلة نارية تتراقص بجنون فوق المساحات الشاسعة. انها منطقة مدهشة وجذابة وغنية بأساطيرها الخالدة التي تحميها الصخور الملتهبة، والسهول الذهبية، ورمال الصحارى التي لا نهاية لها.

الشمس تتصدر السماء الزرقاء الصافية، لترسل اشعتها بدون تردد، فتتوج الارض بهالة من الجلال والعظمة.

انها ارض قاسية ترقص فيها الحيوانات قرب الواحات، وتزهر الببغاوات بألوانها المرحة التي تزيدها الشمس روعة وفرحاً، فتتمايل زهواً الى جانب الطيور الاخرى التي تغني بسعادة قرب النهر الصغير، حيث تلهو بهجة غافلة بنفسها عن صقر متحفز على تلة قريبة مترصداً فريسته.

وبلاد القناة في شتاتيل كالتري ما أشبهها في وقت الجفاف، وما أروعها بعد هطول الأمطار عندما تصبح متوحشة الجمال، وكأنها بعض من الجنة الموعودة. عالم خيال الألوان تختزن الزهور ميلا بعد ميل في لوحة تتألق بألف لون ولون.

حتى الصحراء تحيا حين تحولها الأمطار الى مساحات تزينها زهور الأقاصيا.

صحراء ولكنها ليست بصحراء. فهي تحتاج للماء فقط رمز الحياة، لتولد الضباع والطير يخلو من الغبار صفاؤه يلمع القطر، ويظهر بوزيع السراب هنا وهناك ساخراً بالانسان وبعيونه المتعبة. ويركض الهواء مكسوراً بظل الشمس. فيقتر كالشعلة ذات البريق الحاد فوق تلال الرمل، وبين السهول، ليكسر الحلم وتتردد انعكاساته في المساحات العشبية التي اكسبتها الشمس بريق اللؤلؤ.

انها ارض السراب، حيث تظهر الاشباح فجأة، لتطلق رأسها السحب، وترتجف الشجيرات الصغيرة تحت القامة، وتخرج الغزلان من السهول المرتعشة، لتتباعد واحات المياه السحرية عندما يحاول احد الاقتراب منها. انها ارض يعرفها لنفسه الى وهم.

يا حبي. يا بلادي. قالت كرلي، واحتوتها سعادة غامرة الحنت بها تصل الى حافة الألم. فتحها لشد السطورة من الطفولة والغربة تسحبت ذكرياتها صورة تاتانيل كينغ، الشاب البريطاني الغامر الذي شق طريقه الى استراليا من الارجنتين، وباتاغونيا والى حقول الذهب في بالارات، ربدندي، يشد أسحر القلب اللامع من أول معدن ثمين يعرفه الانسان.

تاتانيل كينغ... كينغ الاسطورة. مامن امة اخرى كانت تستطيع ان تصهر مثل هذا الرجل. وهل في جو مفعم بالحب والامان والاستقرار. لكن روحه المغامرة التي ترفض القيود والحدود لم يكن يرضيها وشعرها الا التحدي الموجود في عالم جديد لم يروضه الانسان. ويقصد حسن طالعه الى ارض كوينزلاند في اواخر العام ١٨٥٨ أرض ابدية الضوضاء والعشب، وبلاد غنية بالخيول والمواشي.

هنا استقر مسلحاً بيديه اللتين لوحتهما الشمس، وبقبضة من حجارة الذهب، وبروح تطالعه صلابة، وباصرار على قبول التحدي، لتبني كنغرا التي

امتد، وتكون الرائد في قيادة صفقة المجد.

وخلال السنوات العشر التالية تفتق به الثلاثة، بعدما تأكيدهم رسالته الفاتنة، وزوجته لم يارض تلبي تحبها الى مقاطعة بريطانية.

اموراء كينغ النشيل الأكبر، اختار مساحات كبيرة من الاراضي في أواسط كوينزلاند، ورسم مايلز كينغ دائرة واسعة حول بضعة آلاف من الأميال المربعة في المنطقة الشمالية. اما كريتس كينغ فلحق شقيقه في كنغرا ليكون ولده وضيفاً لوريثها سيدريس كينغ. انتقى الذي كل خصائص والده صلابة وعنفواناً.

والتي شد اراضي عائلة كينغ من بلاد القناة من رأ نا اواسط المنطقة وصولا الى الخليج، وكلهم من اصحاب المواشي. الآن يعتقدون بأن اباءهم كانوا ايضا من اصحاب المواشي.

وانعكست شمس الظهيرة على اجنحة الطائرة ذات المحركين، وهي تنخفض اكثر فاكثر داخل المنطقة الثانية استرق [illegible] بوب شاتين الطيار الشاب، نظرة الى الشابة الجالسة بقربه. كان هناك شيء أكثر من الأشجار القليلة يفرق بينهما تشق السنوات الأخيرة انطوت الآنسة كرلي في عالم خاص بها تسيطر عليه كنغرا لقد بدرس جانب وجهها بالهواء رعشة رضى واسترخاء تهز تقاسيمها وهي تحول بالسطحة على الكرسي الذي تنضحه كل حركة في جسمها الرشيق وكسر صوته حاجز الصمت.

هولاء. ما رأيك يا آنسة كينغ؟ هل ما زالت البلاد كما تتذكرينها؟

بلحظة نظرت اليه كأنها لم تره ابداً في حياتها ثم انفرج فمها عن ابتسامة حلوة.

هل تظهر غريبة يا سيد شاتين. رغم الأعوام الثمانية التي مرت على آخر مرة رأيتها فيها، ففي ذلك الوقت كان لدي احساس غريب بأني تائهة في ارض لا انتمي اليها اما الآن فانا في ارض [illegible].

[illegible] فيها حزينة [illegible] الاتي الطاقة [illegible] حديثها بحون

أن تحول عينيها عن الأرض القريبة منها.

«قيل لنا يا سيد ناثان إن مصر وروما واليونان وبابل كلها مجتمعة هنا. إنها أرض غريبة وغامضة. لكني أشعر بسيطرتها ومدارها تحرق عظامي».

ابتسم وهو يبحث بعينيه عن أدق الاختلاجات في جانب وجهها. انعطفا من ورأ رقيقاً في قلبه، وكذلك الإشراقة الناعمة التي توجت تقاطيعها الشابة.

«بات أسلافي لهذه الأرض حباً عميقاً أليس كذلك يا آنسة كينغ؛ لا أزعم أنها جوهرة هذا الجزء من العالم».

وأضاف بسرعة:

«تسمي بوب يا آنسة كينغ».

نظرت إليه كوليي مبتسمة، وهي تعي أعوامه بها لانشغالها بالذكريات التي عادت لتحيا في أعماقها بمختلف السنوات، لترجع طفلة صغيرة في طريقها إلى المسرح حتى صوتها صار أكثر طفولة وحناناً.

«هل تعلم بأني أمضيت أحلى أيام طفولتي في هذا المكان؟ كنت أجري بين التلال، والأنهار، والسهول، لاحترق بنار الشمس، وأتعلم لغة الشعب والحياة الموحشة، وبروزنامة البرية، وتقاليد السكان الوطنيين، وكنت أدور في زورق ابن عمي مارت عندما كان يأخذني لفعل ذلك. كان بطلاً بالنسبة إلي كان طويلاً وقوياً وجريئاً».

«أصدقك. إنه صلب كوالده. الكل يهاب مارلاند كينغ ويحترمه. إنه رجل لم تكن أبداً تستطيع التقرب منه».

وصمت بوب ناثان عندما شعر بأنه سيتكلم أكثر من اللازم. ففي حياته كان سيرويس كينغ معروفاً بتسلطه وديكتاتوريته.

هزت كوليي رأسها حالمة، وهي تمرر أصابعها فوق عظمة أنفها الصغير.

«مارت كما أذكره لم يكن أبداً كالعم سيرويس. كان فيه الكثير من والدته العمة راشيل. ربتني. هل تعرف ذلك؟ كنت أحبها كثيرة رغم أنها لم تكن

عمتي فعلاً. سيرويس كينغ ووالدي كانا أولاد عم، ورفيقي صبا، فحضنتنا العائلة، أبي وأنا، بعد وفاة والدتي. كنت في الرابعة من عمري».

وحاول بوب ناثان أن يكمل القصة بصوت فيه الكثير من الود والاهتمام.

«وعندما لقيت السيدة كينغ مصرعها في الحادث الأليم، عدت ووالدك إلى المدينة».

هز رأسه بالإعجاب وهو يحاول أن يسترجع في ذاكرته كل أطراف الأحاديث التي سمعها في السنوات الماضية. كان من المعروف أنه جرت ولاعة بين الأقرباء عندما أعلن سيرويس كينغ عزمه على الزواج مجدداً، ومن أرملة لها ولدان. فالقرار هذا برأي غالبية الناس جاء مبكراً خاصة أنه لم يمض على وفاة السيدة راشيل كينغ إلا أربعة عشر شهراً.

لكن أحداً لم يكن يعلم أن برادفورد كينغ والد كوليي، كان يخفي في أعماقه حباً سرياً لراشيل الجميلة إلى جانب الإعجاب والتقدير. كوليي شعرت بمقدار الألم الذي مزق والدها عندما شرع سيرويس كينغ بالبحث عن زوجة جديدة، قوية بما فيه الكفاية لتسلم شؤون المنزل الواسع، وكبطلها. كانت بحاجة إلى سيدة، ولكن من واجبه أن يجد واحدة. زواج المصلحة بدا وكأنه الحل الوحيد الذي ارتضى ذلك. ولم يسامح برادفورد كينغ ابن عمه على ما فعل، وبقي طوال حياته حتى أن يسمع كلمة واحدة في صالحه. كان جوابه الدائم: كيف يستطيع أي كان استبدال راشيل؟ وكيف يأمل أي كان حتى مجرد المحاولة؟

وتضاعفت الأعوام من مرارته، وكانت سنوات مليئة بالوحدة بالنسبة إليهما. فقط قريب جداً أن تكون أفكار والدها توجهت إلى مارت. لو ربما الأمر ليس بيد العرابة. فمارت فيه الكثير من خصال والدته، وكان هذا كافياً بالنسبة إلى رجل مثله. فقد أحب مارت ورأى فيه الابن الذي كان من الممكن أن ينجب. سيرعاك يا عزيزتي كما فعلت والدته قبله. واستلأت عينا كوليي بالدموع. كانت هذه تقريباً آخر كلمات قالها والدها قبل وفاته. والآن أصبح

دارت وي لبرهة، والرعب على ملامحها والدها لن يصحبها دارت... يطلق أحلام طفولتها..

على الأرض ظهرت سيارة كبيرة تتسابق والتلال في محاولة لإرهاب الصقور وبعد عدة لحظات، ترجل السائق ليشير بذراعيه في حركات دائرية، دلالة على أن المدرج صار جاهزاً للهبوط. نظر بوب غالفن إلى الراكبة الشابة قائلاً: ضعي حزام الأمان يا آنسة كينغ، سنهبط. التفتت كولي فوراً وقلبها يخفق اضطراباً.

ودارت الطائرة الصغيرة مرات عدة في الجو لتهبط أخيراً بدون أن تثير خوفاً كبيراً من الغبار. أزالت كولي حزام الأمان وجلست تنتظر على الرغم التقاء بعائلة دارت الجديدة: زوجة والده بيلا، وستيفن الذي عاملها كثيراً، وسوزان التي تخرجت أخيراً من الجامعة.

كانوا غرباء تماماً بالنسبة إليها، والدها حريص على ذلك.

هدأت الطائرة تماماً ففتح بوب غالفن الباب، وحمل كولي بين ذراعيه ليضعها برفق على الأرض الغنية الحمراء. ولأول مرة منذ ثمانية أعوام طويلة، تشعر كولي بأرض كينغ تحت قدميها من جديد.

السحر القديم عاد ليخنقها وكأنها لم تبتعد عنه أبداً. الأرض الخالدة لا يمكن أن تتغير تحت أشعة الشمس، وتلالها ما زالت غارقة في وهج الذهب، وصرخ في داخلها صوت رن صداه: كأنني لم أغب. هذه هي كنغارا. إنها في أرضها ثانية.

٢ ـ آخر الليل لقاء

لن تنسى كولي أبداً يوم عودتها إلى الجذور. على جانبي مدرج الهبوط اصطف حوالي أربعين شخصاً من السكان الوطنيين من خدم وعمال المزرعة الكبيرة. الكبار منهم في السن ارتدوا ثيابهم التقليدية الزاهية، وزينوا رؤوسهم بالألوان الصارخة والريش. أما أجسامهم فتألقت بخطوط من الأبيض والأحمر والأصفر.

وما إن وطأت كولي المدرج حتى ارتفعت الأصوات مرحبة، وتمايلت الأجسام على إيقاع أقدامهم تضرب الأرض وهم يغنون بلهجتهم الوطنية. لكن كولي كانت تفهم جيداً ما يقولون: طاهرة، هل أنتِ من أحب؟ لا... عودي إلى الينابيع السعيدة، واغرورقت عيناها بالدموع. أحست بكل عواطفها تتفجر في تلك اللحظات. معظم هؤلاء الناس اختارتهم ودربتهم العمة راشيل، فبرهنوا عن ولاء وإخلاص للبيت الذي ضمهم. الكبار منهم أمضوا سنوات عدة من عمرهم في خدمة عائلة كينغ، للاهتمام خاصة بالأطفال البيض الذين وضعوا تحت رعايتهم.

بن العجوز وقف في مقدمة المستقبلين. هو أحد كبار قبيلة الكنغارا. تلقى ثقافة الرجل الأبيض فاستوعبها جيداً وبدون جهد. لكنه لم يفقد شيئاً من مشاعره الخالصة. وبدا بن العجوز مشرقاً يلوح تحاياه تحت شلال من الشعر الأبيض.

وتوجهت كولي إليه مباشرة، مادة يدها بمحبة.

- وأنت لا تتغيّر يا «بن» تماماً كالأرض العجيبة هنا.

أشرق وجه العجوز فخراً واعتزازاً. وانحنى نحوها باحترام وشدّ رقبته فرحاً.

- أهلاً يا آنستي. أهلاً.

نادراً ما كان يتكلم. لكن «كوني» أحست أنه يحتضنها بالنظرة التي يغمرها بها. ترجلت للتو وهي لم تزل واقفة في مكانها. لقد سافرت أكثر من ألفي ميل في الأربع وعشرين الساعة الفائتة.

وضع «بن» يده على كتفها يحنو قائلاً:

- أعتقد أنك متعبة يا آنستي.

ضحكت «كوني» بهدوء، فرنّت ضحكتها وكأنها صرخة إرهاق.

- أنا تعبة جداً يا «بن» لكن كم هي رائعة العودة إلى الوطن. إنها المرة الأولى بعد ثماني سنوات. لكنها لا تزال كما الأمس، ورائحتها كما الأمس مزيج من عطر الورود والأشجار.

ابتسم مؤيداً، واجتمعت بشرته الداكنة في شبكة رقيقة من التجاعيد الرمادية كما هو معتاد.

قالا بعد، فاستدارت «كوني» لتلاحظ للمرة الأولى سائق السيارة النحاسية اللون التي تحمل حرف الكاف محفوراً بالذهب. كان شاباً رشيق الجسم، بارز التقاطيع ووجهه الجذاب يحمل تحت تاج كثيف من الشعر الأسود تزيح قبعته العريضة. وانحنى لها باحترام مبالغ، فيه شيء من الأداء المسرحي. ضحكت «كوني» وردّت بعدها مرحبة:

- لا بدّ أنك «ستيفن».

ابتسم لها وأمسك بيدها الممدودة.

- لا أحد غيري يا آنستي، المرشح الثاني لوراثة الامبراطورية في حال حدوث شيء ما للأخ الكبير «دارت».

- فلنأمل ألاّ يحصل شيء، إلاّ بعد عمر طويل.

أجابت «كوني» بسرعة وفي صوتها شيء من الاستغراب:

- أنا متشوقة جداً لرؤية العم «دارت».

قال «ستيفن» بعفوية:

- ومثلك معظم الفتيات يا آنسة «كوني». «دارت» من أكثر العازبين شعبية لدى النساء، وأنا بعده طبعاً.

- كم أحسدك يا «ستيفن».

أجابته بسخرية، واستدارت لتراقب «بن» الذي كان ينقل حقائبها إلى السيارة وإلى جانبه «بوب شالين» يحاول جاهداً أن يتبادل مزاحاً مع العجوز.

في المنطقة اشتهر بأنه أفضل صياد في البلاد. وزوج من رواد السكان. هذا لا يمكّن المرء من أن يجعله يتكلم. وعادت «كوني» بنظرها إلى «ستيفن»، فأسرع يقول:

- هل تريد الآنسة «كوني» تفقّد الصفوف؟

ولم تحوّل نظرها من حيث سافر وهو يتفحّص وجهها الصغير.

- يسعدني ذلك يا «ستيفن».

ومشت في اتجاه صفوف السكان الأصليين المنتظرين. الوجوه كلها ابتهجت لرؤيتها باحترام ممزوج بإعجاب واضح بالنفس. وبعضهم اكتفى بإرسالهم. «دارت» «كوني» بين الصفوف مبتسمة للجميع، محيية بالاسم الوجوه الأليفة التي عرفتها عندما كانت طفلة.

- كانت رقيقة جداً ومتواضعة في معاملتها لهم. نحن لم نشهد مثل هذا الاستقبال عندما جئنا إلى هنا.

هكذا علّق «ستيفن» فور عودتها إليه فأجابته «كوني» بصراحة:

- مشكلة تلك يا «ستيفن» ولدت هنا، أو أنك نسيت أنني لم أكن أتظاهر بالتواضع. أنا أحب هؤلاء الناس. كبرت بينهم ومعهم. لو استطعت أن تكسب ثقتهم فإنهم يصبحون أوفياء لك. كانت عمتي «راشيل» تقول إن احترامهم يجب أن يكون من أهم اهتماماتنا. كانت سيدة عظيمة.

«لا شك في ذلك يا آنسة كورلي. ما زلنا نسمع الكثير عنها من كل زائر يحل بالمزرعة»

كان يتكلم بنبرة قريبة من الطابع الرسمي. وفجأة ضرب رأسه بكفيه وكأنه تذكر أمراً مهماً:

«أمي و سوزان تنتظراننا. مارت ذهب لزيارة عائلة تيبالت المجاورة لنا على الحدود الشمالية الشرقية»

رفعت كورلي حاجبيها متسائلة

«التيبالت؟ لا تقل انهم اشتروا مرفأ من الكولونيل العجوز؟»

«العجوز توفي منذ اربع سنوات بالسكتة القلبية. لا بد انه كان متقدما جداً بالسن. وعائلة تيبالت استقرت مكانه الآن انهم بالفعل اناس متحضرون من النوع الذي يستطيع أن يجاوره المرء»

«حقاً»

ثبتت كورلي شرود الكولونيل العجوز كان مؤسسة قائمة بحد ذاتها في هذه البقعة النائية. رائد للزراعة القديمة. انها تذكر كم كان معتداً بنفسه وبارائه العجيبة. فلذا ساءها ان تسمع أحداً يتحدث عنه بهذا الاستخفاف. ولاحظ ستيفن انزعاجها فقال:

«آسف. أخطأت اليس كذلك؟ اعرف ان مارت كان يقدر العجوز كثيراً لكنه كان يبدو جافاً وقاسياً»

«ربما لكنه كان يملك روح النكتة والمرح ايضاً»

وانفرجت ابتساماتها الرائعة لتجاوب معها بسرعة.

«على أي حال، يا آنسة كورلي، نحن سعداء جداً لوجودك معنا. يشعر المرء بالوحدة هنا بدون فتيات جميلات نتحدث اليهن»

وتسللت الى عينيه الرماديتين نظرة حائرة. فابتسمت كورلي لتساؤله الصامت.

«اعرف ماذا تقصد. اعتقد ان لاستعداداتي الطبيعية علاقة بالأمر يا ستيفن»

فضحك الشاب عالياً

«الآن انا لا أعرف ماذا تقصدين. مع هذا هناك متسع من الوقت تعالي يا كورلي. يجب ان نودع بوب لا بد انه يرغب في الاقلاع قبل حلول الظلام»

وقبل ان تعي عبارته اقترب منها الطيار الشاب.

«هل كان كل شيء على ما يرام يا آنسة كيري؟»

سألها بجدية يناقضها البريق المرح في عينيه.

«نعم، شكراً يا سيد بوب. لم اكن اتوقع رحلة بهذا الهدوء»

«شكراً واهلاً بك دائماً. علي ان أرحل الآن. ستيفن، هل لك ان تبعد الآنسة كيري عن المدرج. لا أعتقد أنها تحب طعم الغبار»

واصر بوب على مرافقتها الى السيارة، لكنه نسي كورلي بحماسته الواضحة.

«سأراك قريباً»

وارتجفت كورلي بالرعب لفكرة هذه الأرض النائية القليلة السكان. يعتبر الاتصال بالناس أمر أهمية لا تعرفها المدن

أدار ستيفن محرك السيارة، واخذ يطلق الزمور تحية لبوب الذي وقف بعيداً يلوح لها مودعاً. ازالت كورلي زجاج النافذة لتودع بدورها المسافرين الذين بدأ شعلهم يتحرق. واخيراً استراحت في مقعدها، واخذت نفساً عميقاً.

«كان الأمر رائعاً»

«نعم»

أجاب ستيفن وكأنه يسمعه للمرة الاولى. وامتزجت ضحكاتهما.

واسترق ستيفن نظرة الى القامة الجميلة، ابنة عم مارت الصغيرة. انها صغيرة بالفعل لكنها ليست ابداً كما تصورها. واختلف ايضاً عما توقعته والدته وشقيقته سوزان. فبالاضافة الى جمالها كان لصوت كورلي طابع مميز يجمع بين الدفء والانوثة الفائقة. انه من ذلك النوع من الأصوات، التي تجد الرجال انفسهم يستمعون اليه بدون الاهتمام فعلاً لما يقول. ترى كيف ستعاملها نساء

المنزل، ووالدته و سوزان وروشيل ستانت التي لم تعبت نفسها كثيراً من العائلة برغم انها لا تعني له اي شيء شخصياً، وتختفي كل رغباتها وادعاءاتها عندما لا يكون تارت موجوداً.

واخذ ستيفن يحدق في امراب الطعام وهي تهرول بعيداً عن الدرج، قبل ان يعلوه بأول شيء يرد على ذهنه:

ما اعتقد اننا التقينا وكذلك تارت يقول انها كانت سيدة عظيمة.

بدا صادقاً في قوله، لذا اجابته كرلين بعفوية:

نعم، ولا بد انك التقيتها يا ستيفن. كانت امرأة رائعة، طيبة، نشيطة، ونابضة تحيط بها هالة من الاشراق.

الرجال يتزوجون امهاتهم احياناً.

وبسرعة اتارك خلفك، فأردف موضحاً:

تعرفين ما اعني. اقصد ان الرجال يبحثون عادة عن الفتاة التي تشبه والدتهم.

دهشت كرلين لما قال، وبلعت ريقها بصعوبة قبل ان تعلق قائلة:

حسناً، انهم لكثرتك يا ستيفن. قل لي هل تتحدث بصورة عامة ام انك تقصد شخصاً معيناً؟

فحصتها ستيفن بلمحة خاطفة

فالزمن وحده كفيل بالاجابة آنسة كرلين. من يعرف ماذا يخفي له الاقدار يوماً ما؟

أجابت كرلين ضاحكة، ولمحة اعول عنقها من النافذة الى الخارج:

انظر ستيفن، ما اروع التلال لمنبتة الاعشاب الخضراء، تتأرجح عليها ركائب تتمايل فرحاً بالعشب المشكب شلالات من الفضة تتلألأ بينها الحصى كأحجار كريمة. كنفارا، ما اغنية البلد التي ايرلندا لاستقبالي.

وكأن السيارة فهمت شوق الفتاة الى ارض احلامها، فاسرعت تشق طريقها وسط النباتات الكثيفة التي انحنت على الاسطفاف بها بأن انتصبت كل عطرها ترسله موجات من الطيب تسلك الأشجار الباسقة التي تعول ظلالها

الوافرة اكثر الايام حراً الى نسمات .

وكانت السيارة المصار الأخضر منها تتركض في مبالية برائحة المسك التي تداعب الهواء، وكأنها تريد ملاعبته. وعندما يلبث الاشجار من السنتين، كرلين ارتفت الكغانها من المنازل الصغيرة المحيطة بالمزرعة وبالبيت الكبير.

وابرقت عينا كرلين في الطريق المقت بحصى بيضاء. التمعتا أنوراً على بيت طوليها المنتصب باعتداد، متوجاً بالرداء الأرجواني التي خلعته عليه شمس المغيب. كنفارا الرائعة؟ لم تنسها ابداً. هذه الرائعة الصغيرة الساحرة يكسل في احضان الزهور البرية، مستكينة الى الأيدي الصبورة الحية التي تعتني بكل حبة من ترابها.

حتى وهي طفلة، كانت تقف طويلاً امام انعكاسات الشمس على السور الحجري الذي يحيط بالشرفات كتطريز رقيق مجرت على نسجه ايدي النساء، فتستنفر نور الشمس لينعكسها مزيجاً من الاضواء على عالم كنفارا السحري.

البيت الكبير رغم منذ تأسيسه كل مظاهر العظمة الرائعة، واستمدها بجبال الارض المتوحشة العذراء، فكانت كل حجارته جزءاً من صلابة الصخر وعنفوية الرمال.

كم هو جميل هذا البيت العريق. ربما اجمل بقعة من الايام الخالية عندما كانت طفلة تجري المرح في ممالكها، وفي عقلها الصغير البلد المحبة والشوق، الى لم تعد طفلة. واشترت الطريقة الرحبة التي ارهقت كاهلها في ايام الغربة اصبحت مجرد ذكرى.

وتوقفت السيارة امام الشرفة الامامية، حيث وقفت بيلا وسوزان تنتظران الضيفة الشابة. وتركت بيلا الدرجات القليلة رقتها البنفسجي يتأرجح بالهالة حول جسمها الطويل الرقيق. مظهرها ومشيتها كانا كما يتوقع المرء من سيدة كنفارا ان تبدو وتمشي، حتى العم جورجس لم يكن يستطيع وحده تدبير شؤون المزرعة الكبيرة بدون مساعدة سيدة قديرة تقف الى جانبه. لكنها لم

تستطيع ان تقنع والدها بذلك. فهذه المرأة ليست بالهينة. راشيل، برغم شخصيتها المميزة وابتسامتها الراضية [illegible] حتى من بعد.

وأجالت بيلا الانظار القليلة التي تعرف بطلها، وانسحبت عيناها الزرقاوان الباردتان حينما استقرتا على كورلي، ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة غاية في الجاذبية.

- اهلاً بك في كندا يا عزيزتي. نحن سعداء لأنك معنا.

والتفتت الى ابنها قائلة:

- انقل حقائب كورلي الى الغرفة يا ستيفن واتركها هناك.

وصعد ستيفن الدرجات الاربع المؤدية الى البيت وهو يتظاهر انه يعاني صعوبة بالغة في حمل الحقائب. ابتسمت بيلا لحركاته المسرحية وعادت قائلة لكورلي:

- بهذا هو ستيفن. تعالي الآن لأعرفك بسوزان. دارت انتظر للخروج بعد الظهر [illegible] الى حد ما.

وابتسمت كورلي [illegible] الفتاة المستقيمة بلا مبالاة من سور الشرفة الخشبي، وقابلتها بصوتها الواضح الشاب عندما قالت:

- انت لست كما تخيلت دارت.

قالتها باستغراب وكأنها ترى الامر غريباً لدرجة لا يمكن معها تصديقه.

انزعجت بيلا، واشتعل وجهها الجذاب غضباً قبل ان تنظر الى كورلي معتذرة.

- كورلي عزيزتي، أود لو تعذرين سوزان. انها لا تزال بفترة عصبية.

ورمقت ابنتها بنظرة قاسية.

- واما انت يا سوزان لو تتذكرين ابسط اصول الادب والسلوك.

نفضت سوزان الكلمة مرتفعة ومع هذا الاستقبال الجاف وجدتها كورلي فتاة جميلة. او كان من الممكن ان تكون جميلة لو اهتمت أكثر بمظهرها الخارجي.

فهي طويلة القامة، رشيقة الجسم، ولها ملامح وجه والدتها الجذابة. شعرها الأسود رفعته الى الوراء على شكل ذيل الحصان. اما سروالها وقميصها فكانا في حالة رثة.

وانتظم ستيفن معاتباً شقيقته:

- لا تهتمي بها يا كورلي. انها الابنة الوحيدة والمدللة للعائلة كنيث من مزرعة كندارا.

تجهم وجه سوزان، واضطرت الأم لتتدخل ثانية [illegible] من حين

- ويكفي يا ستيفن. لا ادري ما سيظنه كورلي بنا.

فضحكت كورلي: ما رأيك بنا.

ولمعت عينا كورلي بضحكة مكتومة.

- سأحتفظ بحكمي حتى أتعرف اليكم أكثر.

واستقرت ثلاثة ازواج من العيون عليها تتفحصها باهتمام. سوزان كانت [illegible] الأسرة كورلي كنيث [illegible] الشاب السمراء [illegible] بنظراتها الشرسة [illegible] الأزياء [illegible] انها من الفرع الفقير من عائلة كنيث، وان لا [illegible]

بشرتها السمراء الفاتحة كانت مشابهة لمعظم افراد عائلة كنيث، بشرتهم داكنة. دارت مثلاً يبدو ببشرته النحاسية كالهنود الاصليين برغم عينيه الزرقاوين الفاتحتين.

شعرها القصير الناري الخصلات يؤطر وجهاً رقيقاً فيه حنان غالباً [illegible]. أما عيناها فواسعتان خضراوان تتألقان تحت حاجبين داكنين لها حد السيف وميزات خاصة بها. وفي عينيها ايضاً اعتداد واضح بالنفس، واصرار التحدي مع لمحة من الشقاوة. بشرتها الصافية لا تشوبها [illegible] النمش التي تزال عادة فتيات الشعر الأحمر نتيجة حساسيتهن لأشعة الشمس.

وابتسمت كورلي للانطباع المرتسم على وجوههم.

- ربما تظلمونني لاحقاً على رأيكم.

وطبعا كان ستيفن أول من أسرع بالاجابة:

ـ ستحبك فوراً يا عزيزتي، نجحت في الامتحان.

ولم تدع بيلا أباها يكمل حديثه.

على سطح النهار كله والذي تحدث. تعالي يا كولي لتدخل المنزل.

وسبقتهم إلى غرفة الجلوس، وورائها دخلت كولي. كم هي جميلة هذه الغرفة بمساحتها الواسعة التي يتوزع في أرجائها مزيج مدروس من الأثاث القديم والحديث. أشعة الشمس المحتضرة تتسلل من النوافذ لتتكاسل على الخشب المذهب لانتقالها، ولتحيي الخطوط الصفراء الذهبية التي تزين الستائر والبسط المفروشات.

أشعلت بيلا الأضواء الكهربائية، فخرجت راشيل كينغ من القتامة لتعود إلى الحياة. رسمها يتصدر الغرفة ويسيطر عليها صورة امرأة حية في ثوب السهرة يلون السماء، يتهدل شعرها الطويل الأسود حول وجهها الجذاب الذي تزينه بريقاً عينان فيهما الكثير من السحر.

ولم تستطع كولي إبعاد نظرها عن الوجه، حتى تناهى إليها صوت بيلا:

ـ لا شيء يتغير. أليس كذلك يا كولي؟ أنسيت أنك آتية من سفر طويل لا بد أنك مرهقة.

ـ لا يبدو عليها ذلك يا أمي.

قال ستيفن مقاطعاً والدته، فتجاهلته هذه الأخيرة لتتابع حديثها:

ـ سوزان سترشدك إلى غرفتك. دارت اختارها لك. أعتقد أنها غرفتك القديمة. سيكون لديك متسع من الوقت للراحة ولاستبدال ملابسك قبل موعد العشاء. آمل أن يعود دارت باكراً.

ـ شكراً لك يا سيدة كينغ.

ـ نادني بيلا أو العمة بيلا. لذا كنت تفعلين ذلك في أي حال أنت تربية دارت. وبصراحة لا أعرف أين كنا سنصبح لولا وجوده.

ـ ستدعوك أنا العمة بيلا.

وقادت كولي سوزان إلى الجناح الغربي. لم يتغير شيء، عشر سنة أو ستين شخصيتين بقيت الأشياء كلها في مكانها. وقطبت كولي حاجبيها وهي تتذكر نبرة القلق التي طلت بها بيلا عند ذكرها لاسم دارت. عرفت من محامي العائلة أن سيروس كينغ لم يعط الوصية التي كتبها مباشرة بعد وفاة دارت، وهذا يعني أن دارت ورث وحده كاملاً كل الأراضي التابعة له. أي زوجة والده وولداها يعتمدون الآن على طيبة دارت واستعداده للانفاق عليهم. أمر غريب فعلاً. لكن سيروس كينغ كان معروفاً بتصرفاته غير العاقلة. توفي في وقت كان الجميع يظنون أنه سيعمر طويلاً. ونفضت كولي رأسها عن هذه الأفكار فهذه ليست مشكلتها.

فتحت سوزان باب غرفة كولي وهي تبتسم قائلة:

ـ غرفة إبنة عم دارت العزيزة.

ولم تنتبه كولي للطفها الساخر، فالذكريات خطفتها على عتبة الباب لتعيدها سنوات عدة إلى الوراء.

ـ لا تهتمي بي يا كولي، أعتقد أني مغرمة به كسائر الفتيات، وأظن أنك كذلك أيضاً.

وانتزعت كولي نفسها من حصار الذكريات لتحاول التركيز على ما تقوله الفتاة.

ـ آسفة يا سوزان. لم أسمعك.

ـ قلت أنك أيضاً مغرمة بدارت.

ـ لا أستطيع أن أقول بأني مغرمة بأحد. لم أعرف معنى الحب بعد.

ـ طبعاً لم تعرفيه. نسيت أنك من سلالة عائلة كينغ الصلبة.

ـ يقول هذا عنه.

ـ أحياناً، لا بد أنك كنت تحسينه وأنت طفلة. دارت يقول أنك كنت تركضين في كل أرجاء المزرعة كالولد وراءه.

ـ هل قال ذلك فعلاً؟ غريب أمره.

«هل كنت كذلك؟»

«تصعدين برية الشاطئ؟ نعم، ولست متأكدة من أني أصبحت الرشيقة الآن»

«لا تحرمي من الغرابة. أريد أن أعرفه منذ الآن بأن "هارت" وجد الفتاة المثالية ونحن نوافقه اختياره»

«نعم، أظنك توافقين شخصياً على اختياره يا "سوزان"»

وابتسمت "كولي" وهي تتوجه إلى طاولة الزينة بتأمل زجاجة من الكريستال، لمستها بنعومة، تحمل في شفافيتها شخصية العمة. وتأملت أرجاء الغرفة ومعها تلونت من الوردي والأبيض إلى العاج المطلي بالذهب الساطع وبعارض السرير تألقت بلون أخضر فيه شيء من عشق عينيها. وعلى الجدران صفت مجموعة رائعة من الصور الأسترالية الحريرية محمية في إطارات ثقيلة من الذهب.

«غرفة مترفة أليس كذلك يا آنسة "كولي كيغ"؟ "هارت" حريص على ذلك. لا بد أنه تذكر أمراً عجيبه الحضراويين. لكن هذا لن يجديه شيئاً ستعرفون ما أقصد حين تريين "ريتشل تيباتس"»

«أنا في شوق لمعرفتها وأريد أن أشكرك هنا يا "سوزان" على "هارت" يعني أني ممتنة مهما كانت درجة علاقتي بتلك الأشرافات»

ولم تعد "كولي" تتحمل استقرارا هذه الزوايا. لقد مرت بفترة عصيبة خلال الأشهر القليلة الماضية وهي في حاجة إلى الراحة والاستقرار لكنها عادت تضعف أمام حيرة "سوزان" وقلقها

«وإن لم تصبح صديقتي يا "سوزان" أنا إلى الآن في هذا الوقت الكافي لأعرف مشاريعه يا عزيزتي»

«أنا صديقتك "ريتشل" تخبرني بكل ما يحدث معها»

أصرت "سوزان" على متابعة الحديث بقوة "بكولي" لأن تكن أكثر صراحة.

«آسفة "سوزان" إن نعتقد على تحضيري حتى موعد العشاء»

«لا شيء سيسرني أكثر يا آنسة "كيغ"»

وأثارت الكلمات الأخيرة وكلها ترجمة لحالة كبيرة لـ"كولي" التي أغلقت وراءها الباب ضاحكة.

وتنبهت "كولي" "سوزان" وهي تقف أمام النافذة العريضة تراقب شارع الأشجار بين البنفسجي والأحمر والوردي على الأفق الغربي، الذي رسم خطاً ذهبياً بين التلال والسماء.

وعادت "كولي" عالياً.

«أليس المشهد رائعة الأشياء كلها هنا رائعة الجمال»

لم يعد "هارت" في موعد العشاء فتناولوا طعامهم من دونه. القاعة تألقت بالشمع ليبرز لونه الشفاف بين الأدوات الذهبية وزخرفة الصحون الصينية الثمينة.

والتفتت بنظرها إلى المرآة الآسرة "بيلا" البيضة جداً في ثوبها الحريري البنفسجي، اللون المفضل لديها منتظر "كما أن كان يشع نشاطاً وحيوية أما المنزل الوحيد الذي قامت به "سوزان" فكان استبدال مريلتها الزرقاء بأخرى من الكتان.

ولم يكن العشاء ناجحاً رغم أصناف الأطعمة الشهية التي برعت الطباخة في تجهيزها. وابتسمت "كولي" لمدبرة شؤون المنزل وهي تتنقل اللاهثة من الصحون المبتعدة، سيدة صغيرة ممتلئة الجسم، في وجهها طيبة الريفيين، وفي عينيها ذكاء فطري. والتفتت "بيلا" اتجاه "كولي".

«آنسة يا "كولي"، لم أعرّفك بها أنها السيدة "نيل أبغال" زوجة كبير عمال المزرعة. "نيل" هذه "كولي"، قريبة "هارت"»

«أهلاً بك في "كنغلرا" يا آنسة "كولي". آمل أن يكون العشاء أعجبك»

«كثيراً يا سيدة "أبغال". أنت طاهية ماهرة»

«يسرني أن أكون كذلك. "هارت" يحرص على إحاطة نفسه بالشرف والأشياء الجميلة»

وانطلقت في الطبخ مجدداً بعد وقت بالحب والطرق والبرتقال. فتنبهت

سوزان صامتة.

«يجب علينا ان نصل جاهزين للرقص» دارت، «فيكون فخوراً بنا».

نهضت والدتها في ضيق يبدو انه اقلق شيئاً ولكي تقطع كولي الصمت الثقيل الذي جثم على الغرفة قررت تغيير الحديث:

«اود مساعدتك قدر الامكان يا عمتي بيلا. طيلة الفترة التي سأمضيها معكم. هل في ذهنك عمل ما استطيع القيام به؟»

«لا تقلقي سيجد لك عملاً».

علق ستيفن بمرح فالتفتت والدته بعتب.

«يكفي يا ستيفن اما انت يا عزيزتي كولي فشكراً على العواطف نحوي لكن...»

توقفت عن الكلام فجأة كأن الفكرة خانتها

فبادرت كولي الى القول:

«الطباعة، مراسلة...»

نهضت سوزان بغضب وصرخت:

«انا حائزة على شهادة في الطباعة على الآلة الكاتبة لكن يبدو انني لست بالكفاءة الكافية او ربما لست بالمستوى الذي يرضي دارت. واكتشف الآن انني لم اعد احب اي أحد حباً صادقاً ومواهب الأسف للنعمة تستحق كل الهاء، وتحرى كيف ستتصرف»

«شكراً يا سوزان»

قالها ستيفن بهدوء ودون ان ينظر اليها.

انسحبت سوزان بسرعة قبل ان تفضح اعدامها الدموع المحبوسة في عينيها.

وانتظرت كولي تفسير سوزان الواضح منها فالتفتت الى بيلا مستوضحة لتجدها مستغرقة في تقشير تفاحة وكأن الحديث لا يعنيها وعندما انتهت بيلا نهضت كولي وعينها حاولت تبديد الغيوم بتغيير الموضوع.

«انت لا تشبهين كثيراً افراد عائلة كينغ يا كولي لا بد انك تحملين الكثير من ملامح والدتك».

«اعتقد انني اشبه لون الشعر لانها كانت في الرابعة من عمري عند وفاتها ولذا لم تسنح لي الفرصة لمعرفتها فعلاً».

«الأمر محزن حقاً».

ولاحظت بيلا الشحوب الذي علا وجه كولي

«انت مرهقة يا عزيزتي. يجدر بك الذهاب الى الفراش باكراً».

واحست كولي بالارهاق يتسلل الى اطراف اصابعها. كانت تعرف ان السبب ليس رحلتها الطويلة الى كندا بل توترها العاطفي. كانت تخشى هذا اللقاء الاول مع عائلة دارت ولذا حشدت كل طاقتها الذهنية لمواجهة مخاوف طفولتها. الآن لم يعد هناك شيء تتوقعه عدا رؤية ابن عمها دارت، واستفاقت من احلامها على صوت ستيفن:

«هل تستطيعين ركوب الخيل يا كولي؟»

«طبعاً. امضيت كل صباح تقريباً ... ساعات طويلة في تحسين اسلوبي»

«لدارت اسلوب خاص ومميز في التعامل مع الخيول. رأيته مرة...»

وقاطعه صوت آنية تتكسر في المطبخ تبعه صراخ السيدة ايفانز حدقت الفاعل، وابتسمت كولي في الصمت

«آسفة يا عمتي بيلا. لم الاحظ نفسي. ما زالت حية في ذاكرتي اصوات الاواني تتكسر على ايدي الخادمات الصغيرات اللواتي لا يعملن بجدية»

ودخلت السيدة ايفانز الغرفة حاملة صينية القهوة

«آسفة يا سيدة كينغ يبدو ان الصحون تنساب من بين اصابع الخادمة الجديدة كرمال الصحارى»

«آمل ان يتحقق الوضع قبل ان تنفد الأواني كلها ضعي القهوة هنا يا سيدة ايفانز وعودي الى منزلك فلا بد ان زوجك ينتظرك».

- ألا تعرفين موعد عودة السيد «دارت» إلى المنزل؟
- بصراحة لا.
- حسناً سأذهب. تصبحون على خير.
- وأنت من أهل الخير يا سيدنا «أنطوان».

وبعد انتهائهم من تناول القهوة، عرضت «كوليني» تنظيف الطاولة من الأكواب والصحون، فأسرع «سيمون» لمساعدتها كما قالت انه «بيلا» التي ظلت ضاحكة:

- هذه سابقة في «كندا» أن يعرض «سيمون» خدماته.
- لا بد أنه تأثر «كوليني» بالعدوى.

بعد ساعات كانت «كوليني» لا تزال مستيقظة تحدق في الظلمة التي لم يكن يضيئها إلا شعاع قمر النجوم فقط كانت تتألق في السماء، وكأنها المحار من اللمس تضارب بفوضى مدروسة. الفراد أبى أن يخلد إلى النوم والسهر على متابعة صدور الغناء، قرب جانب المنزل. السكون خيم بوحدته على جميع الكائنات ولم يجرؤ على خدشه الا طير نبش القش في مكان ما بعيد عالياً.

ورغم تعبها الشديد لم تتمكن «كوليني» من النوم. جلست في فراشها تستنشق رائحة الياسمين تحاول عبثاً أن تعرف سبب توترها. استرجعت في ذهنها صورة أفراد عائلة «دارت»، وتوقفت طويلاً عند «سوزان» علّها في تعثر على اللذة منها وتقطع حبل أفكارها صوت سيارة تهدر في البعيد. في السكينة تعرض أصغر الأصوات ذاتها على الأعصاب المتأهبة.

نهضت «كوليني» من فراشها وأشعلت الضوء الصغير قرب السرير. الساعة كانت تقارب الحادية عشر والنصف. لابد أنه «دارت» عائد من منزل «تيناتشه». نسيت حالة غرورها من كانت تنظر بحثت عن الرداء الذي تضعه عادة فوق ثياب النوم، فوجدته ملقى على مقعد قريب. تأملته طويلاً. كم هو جميل هذا الرداء الذي أهدته لها والدها من الحرير الأصفر. مزينة بالأخضر يكسي تآلفاً مزيناً في صميمه الفراشات الثائرة عليه بألوان صارخة تمزيجها رقة وأنوثة وبهاء

تستطيع وضعه أينما كانت.

وارتدت «كوليني» الثوب، وضعت جيداً عند القميص ثم وقفت أمام المرآة تسرح شعرها باهتمام. ولم ترضها صورتها المنعكسة في الزجاج المصقول فأضافت لمسة من أحمر الشفاه الوردي على شفتيها، لتمسحها بعد ثوان. وأخيراً جلست تنتظر مجيء «دارت» وهي تحاول جاهدة السيطرة على توترها وترقبها.

«دارت» الرجل الذي نسجت عليه أحلام مراهقتها تلك الصفات الرائعة التي تجمع بين القوة، والمرح، أو الجدية. وأطلت عليها ابتسامته المشرقة من وراء شريط الذكريات، فأحست نشوة الأول في تلك الأمسية البعيدة، براحة عميقة شملت تشنج أعصابها، واستلقت بهدوء على المقعد الوثير.

وبعد دقائق، سمعت «كوليني» صوت سيارة توقف في الممر المؤدي إلى المنزل. تلاها صوت قصير ثم وقع الخطى على الحصى. وشردت «كوليني» لدقائق معدودة، قبل أن تفتح باب غرفتها لتنزل إلى الطابق الأسفل. خففها الرفيقان لم يكن لها أي صدى على الأرض الخشبية.

في الرواق كان الضوء خافتاً، وكذلك في غرفة الجلوس. أما المطبخ فكان يشتعل نوراً. تسللت اليه «كوليني» على أطراف أصابعها، ووقفت ساكنة على العتبة. كان «دارت» منحنياً على مائدة الطعام، يتناول عشاء سريعاً مؤلفاً من حليب، وبعض طماطم، وقطعة جبن، ورغيف خبز. ورغم أنه كان يدير ظهره لها إلا أنه شعر فجأة:

- ألا تظنين معي يا «كوليني» تعالي لأراك.

وتقدمت «كوليني» بانفعال، لكنها حاولت أن تخفي توترها بتعليق ساخر:

- على أنك مهمل في مؤخرة رأسك يا سيد «ماركلاند» كثيراً.
- فقط عندما يكون الأمر متعلقاً بك يا عزيزتي. ألا تذكرين كم مرة أمسكتك من الشعر عندما كنت طفلة صغيرة؟

وبعد، استدار «دارت» ليتفحصها بحنان. لم يتغير وجهه كما عهدته منذ تركته منذ سنوات. لم تبق شيء من النشوة يتسلل إلى حين يغرق في عينيه الداكنتين.

تنم عنه ثقة واضحة بالنفس، وانطباع بالسيطرة يصل الى حد التعالي. لكنه تعالي الرجل الذي استطاع ان يحقق شيئاً مهماً في حياته. «دارت» لم يتغير. اما «كولين» فلم تعد طفلة.

«هلا جلسنا في الصالون؟» اقترحت الشابة المتجهة الى المنزل.

ورنت النواني بطيبة وهو يحدق في وجهها الجميل. وتلاعب شبح ابتسامة رقيقة على زاوية فمه قبل ان يقول مداعباً:

«قل لي ابنة عمي الشائكة، ما زلت كما كنت. هنا بعض التغيرات البسيطة هنا وهناك. لكن اخبريني اين ذهبت بالنمش؟»

واقتربت منه «كولين» بخطى مترددة.

«نمش؟ وجهي لم يكن ابداً مغطى بالنمش. ألا تتذكر يا «دارت»؟»

وحاولت «كولين» السيطرة على اعصابها حتى لا تفضح اضطرابها الداخلي.

«نعم اتذكر يا عزيزتي. كنت طفلة رزينة لكنك ستضحكين في القفص عند لرقة ...»

علاها الجواب فابتعدت عنه لتشغل نفسها باعداد طعام العشاء. راقبها «دارت» وهي تكسر البيض في الوعاء الكبير وكأنها تقوم بعمل مهم يحتاج الى كثير من الانتباه. واخيراً رفعت عينيها اليه وقالت بحزم:

«ما زلت رزينة يا «دارت». لم ازل اتغير.

معناه لا يستطيع الى ان يتراجع ما سمعت لاحقاً. اعرف انك لا تصدقين الشائعة، فهذه طبيعتك الثائرة. بدو ان لون شعرك الاحمر له علاقة بتصرفاتك. الثائرات الشعر معروفات بانهن ثائرات الطباع ايضاً. لكني مسرور جداً الآن واعرف انك ستفعلين كل ما تطلبه ابن عمك «دارت» منك.»

رفعت عيناها ببريق شقاوة طفولية.

«اري انك لا زلت محتفظاً بتعاليك القديم يا ابن عمي العزيز. نسيت كم انت شقيه.»

«وانت ايضاً. كنت دائماً تتصرفين على مزاجك حتى وانت طفلة.»

ووجدت «كولين» نفسها تخفق البيض بعنف غير ضروري.

«لكني لم اعد طفلة يا «دارت».»

«لاحظت ذلك. اصبحت فتاة كبيرة اذاً. في اي حال الكبيرات يسببن مشاكل اكثر من الصغيرات. هذا هو رأي جميع الرجال العاقلين.»

وانفعلت عندما لاحظ اضطرابها. تناول سيكارة ووقف متكاسل ليجيء بعود الثقاب.

«صحيح اني اعيش هنا في عالم للرجال. لكني اتذكر بالنساء احياناً، وخاصة ذوات الشعر الداكنة.»

اشعل سيكارته وعاد الى الكنبة ليتابع قائلاً:

«في اي حال «روشيل» هنا دائماً.»

وللمرة الاولى شعر «كولين» بشيء من التوتر بينهما، جديد عليها هذا الشعور. انه شيء من عالم الكبار ولا علاقة له باحلام الطفولة. وعندما لاحظت «كولين» النظرة الساخرة في عينيه احمرت غيظاً.

««روشيل»... نعم «روشيل» طبعاً. هل ارى هنا شبح عاصفة في الافق؟»

اقتربت شفتا «دارت» من اسنان ناصعة البياض. لكنه لم ينطق بحرف واحد.

«اجبني يا «دارت».»

«فكتا يا عزيزتي! الرجال يشعرون بالضجر احياناً. ام انك لا تظنين باني صالح للشعور بالحب؟»

عضت «كولين» شفتها والتفتت بوجهها عنه.

«ما لك يا «كولين»؟ لا تخجلي.»

«لم اخجل. اغضبتني الذكرى فقط.»

وضحكت لتخفي انزعاجها حين لاحظت انه راقبها قليلاً. وشغلت نفسها مرة اخرى بوضع مزيج البيض والاعشاب في المقلاة المشبعة بالسمن الساخن.

«ما اطيب هذه الرائحة يا «كولين». انا جائع لم اتناول اي طعام منذ وقت الغداء.»

«ان يكفيك البيض اذاً سأقليه بسرعة لك.»

وأسرعت الى الثلاجة تتفقد محتوياتها وأخرجت قطعة كبيرة من الجبن. أخذت
تقطعها شرائح صغيرة. وساد الصمت دقائق قليلة حتى انتهت «كولين» من
اعداد الطعام وترتيبه على المائدة.

«دارت»

«نعم عزيزتي. هيا ارغبي ما في قلبك»

«لا تسخر مني. احاول ان اقول لك شيئاً. ساعدني»

«لا اريد مساعدتك»

«انا اتكلم بجدية الآن. ارغب ان تعرف يا «دارت» اني قادرة على الاعتناء
بنفسي. لم يكن هناك ضرورة لارسالي الى «هنترفسيلد» مسؤوليتي. انا احب
«كنغارا» انت تعرف ذلك لكني لا اريد مضايقة احد لا عائلتك ولا ...»

وأمسك «دارت» معصميها واخذ يشد عليه بقوة.

«تلك الفكرة يا صغيرتي بانك جئت الى هنا للشكليات سخيفة الآن.»

«ارجوك يا «دارت» انت توجعني»

«آسف»

ترك معصميها، ولكنه لم يبعد نظراته المتحدية عنها.

«في هذه الحال اعترف لك يا «دارت» بأني قد اسبب لك بعض المشاكل»

«انا اتوقع ذلك يا عزيزتي. لكني اعتقد ان لدي القوة الكافية لاسيطر على فتاة
صغيرة»

«يا إلهي. تجعل الامر يبدو وكأنه جولة ملاكمة يا «دارت» العزيز»

«وربما يدفعك ذلك الى التصرف بنعومة ورقة»

«اشك بأن يحدث هذا. لكني اعرف الآن على الاقل ما هو توقعه»

«اذا كنت تودين الدخول في تحد، فقد يفيدك ان تعرفي بأني استطيع امساكك بيد
واحدة»

«يا لك من رجل جبار»

وضحكا. فبينهما عادت تلك الدعابات الطفولية، واحتضن «دارت»

«كولين» بحنان قائلاً:

«لا أريد استرجاع الذكريات الاليمة. لكني سعيد جداً لان والدك فكر بي قبل
وفاته، وتركك في عهدتي. كنغارا حزنت جداً لغيابك عنها. واشتقنا نحن
لشيطنتك ووجودك»

وابتسمت له «كولين» برقة.

«عليك ان تنسي قائلاً يا صغيرتي. الرجال يفعلون اي شيء لرؤية ابتسامة
كهذه»

«بالنسبة الى رجل يعيش في عالم للرجال فقط انت خبير فعلاً في اغراء النساء»

ونهضت «كولين» من مقعدها لتلتقط الصحون المستعملة وفناجين
القهوة بعدما انتهيا من تناول العشاء. ترنحت فجأة وكادت تقع لولا ان امسك
بها «دارت» في اللحظة الأخيرة

«انت مرهقة يا صغيرتي. عودي الى فراشك. ستنامين كطفلة هذه الليلة»

«تصبح على خير يا «دارت». وشكراً لانك استضفتني في «كنغارا»»

«انت بحاجة لن ترحلي في هذه الفترة. هيا اذهبي الى فراشك. تصبحين على خير»

وقبل ان تغلق «كولين» باب غرفة الطعام وربما سمعت «دارت» يتمتم:
«اهلاً بعودتك يا «كولين» العزيزة»

وكافأته بابتسامة رائعة، لم ير «دارت» مثل رقتها من قبل.

«شكراً «دارت»»

وقبل ان تستسلم «كولين» للنوم، احست للمرة الأولى، منذ انتزعوها وابعدوها من
احضان «كنغارا» بالراحة والاستقرار والأمان. فاستغرقت في نوم عميق بدون
احلام.

٣ - ابنة الشمس

كان الصباح جميلاً ومنعشاً، والسراب يبدو بعيداً في الأفق. التفتت «كرلي» عند أول بصيص ضوء، مشت بعيداً، وتابعت المسافة نحوها. كان الوقت قرب الخامسة صباحاً. أزاحت الستارة الزرقاء المعلقة بسريرها ونهضت وهي تشعر بحيوية فائقة كان من المستحيل معها البقاء في الفراش.

وضعت رداءها الحريري الأخضر، وتوجهت الى النافذة لتبعد عنها الشبكة الواقية من البعوض، وتمد نظرها الى المساحات الشاسعة في الخارج. كان العالم يستحم بضوء فضي ناعم، ترطبه نسمات منعشة. كم هو رائع هذا الهواء النقي تنشقه بحس ملأت رئتيها بأريجه الذكي.

واطل الصباح بكل اشراقه، وطلت الشمس الزهور بالذهب، ملقية ظلالاً وردية على تلال الرمل المتناثرة.

صخور النهر اخذت تتألق فوق الوادي فارشة أجنحتها لتلمع معدناً ذهبياً في ضوء الصباح الباكر. والى الشرق كانت زرقة سلسلة الجبال تمتد طوال الافق غارقة في السراب، حتى بدت كأنها رسمتها ريشة فنان. فأضفت عليها جمالاً أبعد من الحقيقة.

اما جو الصحراء فلم يكن يماثله اي جو آخر. الاشياء كلها تنتصب بوضوح خيالي، والقطعان الاثنية تبدو على مرمى حجر بينما هي في الواقع على بعد عشرين ميلاً.

وبينما كانت «كرلي» تتأمل روعة الطبيعة الممتدة امامها ارتفعت الشمس

اكثر في الجهة الشرقية من السماء، ترافقها ريح رقيقة تصفر بعذوبة بين الاعشاب المعطرة، ناثرة عبير الياسمين الذهبي.

لم تشأ «كرلي» ان تضيع لحظة واحدة من مهرجان الطبيعة التي استيقظت فرحاً بالشمس، فارتدت سروالاً من الكتان، وقميصاً حريرياً أصفر اللون، وما هي الا لحظات حتى كانت في طريقها الى النهر التي شهد العديد من مغامرات طفولتها.

اسرعت «كرلي» الخطى وهي تشعر بنفسها خفيفة لدرجة احست معها انها فراشة تطير سعيدة بحريتها واخذت تدندن اغنية من اغاني السكان الاصليين تعلمتها في طفولتها. في ذلك الوقت من الصباح كان الهواء نقياً منعشاً لكن لن يلبث ان يتحول حرارة عند الظهيرة، ويمارس ضغطاً يصعب به على الانسان السكون التي يخضع لاغرائه.

ولم يمض وقت طويل حتى قطعت «كرلي» المسافة الى النهر المتعرج بين نباتات الزهور الملونة واشجار الصمغ العالية. وفجأة سقط امامها طير من الشجر القريب، وكأنه يستنجد بها من النسر الذي يطارده بوحشية. فصفقت بيديها عالياً لتخيف الطائر الكاسر الذي ابتعد عن فريسته مسرعاً.

كان العالم الاخضر حولها يضج بالحياة، تتوقف لحظة لتتأمل الطيور وهي تحلق ضاحكة فوق المستنقع القريب، قبل ان تستحم في المياه الضحلة التي انعكست عليها الشمس انواراً متلألئة.

وكانت شلالاتها فتية من الضياء تتسرب من خلال ستار النباتات الاخضر، لتعانق الارض المعطرة بالندى. واحتضنت الطبيعة «كرلي»، وانسابت الظلال الذهبية الى قلبها تخفف من أمر [illegible] تركتها سنوات الغربة في نفسها وغنت العصافير فرحاً بعودتها وصارت تزقزق بلا تعب او كلل. بينما تلمع النهر لترسمه فوق الحصى التي شاركته غناء سعيداً بيقظة الحياة.

بالمرة الاولى منذ وفاة والدها وضعت «كرلي» رأسها بين يديها وبكت. الدموع المنهمرة فوق وجنتيها تساقطت بحرى لتغسل بقايا الحزن القابعة في

لمراقبتها، واحتوتها الأرض الدافئة لتظللها بسحرها البدائي ولتمسح دموعها. واحست كرلي اخيراً بالراحة والسلام. كانت الصرخة ضرورية.

وفجأة، وبدون سبب معين، شعرت بأن احداً ما يراقبها. الزمت عينيها عن وجهها ومسحت دموعها بسرعة. وبرزت دقائق وهي لا تزال في مكانها، واحساسها يقوى بوجود شخص آخر. واصغت جيداً للاصوات حولها منتظرة سماع نبرة غريبة. ولمحت النباتات على حافة النهر تتحرك، وتناهى إليها لحن قديم يحضر الأحلام. ولمحت كرلي رأساً يطل على جذع شجرة كبيرة قرب أحد تعرجات النهر، طفل صبي صغير يلعب على آلة موسيقية جانبية. انه رمز رائع لا يتخطاه الزمن.

وصاحبت الاغنية لحناً شجياً بدون كلمات. ترافقها كرلي بصوت خفيض بدأ يعلو تدريجياً ليصدح بالحبة ولهفة كانت غالباً ما ترددها وهي طفلة.

وحل محل القرب الصغير منها، ووقف الى جانبها بدون ان يتوقف عن العزف. والتفتت اليه. كان في السابعة من عمره تقريباً. خصلات شعره الاسود تلتف حلقات كثيرة على رأسه وتنحدر بفوضوية على جبينه. عيناه الداكنتان الواسعتان الفريدتان رفقة كتكل انه جسمه. وكان صدره العاري يلمع ببريق نحاسي، فوق سروال كاكي اللون، من النوع الذي يرتديه عمال المزرعة.

وتوقفت الموسيقى فرحبت كرلي بالعازف الصغير:

«أهلاً بك يا استراليا الصغير»

ولم يفهم الطفل قصدها، فاجابت ضاحكة:

«هل انت ابن من المزرعة؟»

اجابها عيناه المترددة حتى قبل ان ينطق بكلمة واحدة:

«نعم يا آنسة. انا المساعد الاول للسيد الكبير»

«حقاً؟»

سألت كرلي باهتمام، فلم يبد عليه اي انزعاج من نبرتها المداعبة:

«اسمي بوركا. وانا مساعد السيد دارت الاول»

وابتسمت كرلي. هذا الكائن الصغير الذي اصل طفولته التاريخية كل قدم القارة الاسترالية. ولمعت عيناها الخضراوان فرحاً باللقاء.

«كم عمرك يا بوركا؟ سبعة، ثمانية اعوام؟»

«اكثر من ذلك يا آنسة.»

وفتح ذراعيه واسعتين ليدل بحركة طفولية عن حقيقة عمره. وعندما اطمأن اخيراً الى كرلي قربها على الصخرة فانحنت لتفسح له مجالاً أكبر.

«المكان رائع هنا، اليس كذلك يا بوركا؟»

هز رأسه ايجاباً وسطع شعاع شمس بينهما. وركض الى النهر ليحوله الى شريط متموج من الذهب. فوقها كانت الطيور تزقزق بصوت عال. وكان لديها الكثير من الاخبار تود ان ترويها قبل حلول الظلام.

«بوركا، هل تعرف ما هو اسم تلك الاسماك؟»

ودلت على الاسماك الصغيرة الشفافة اللون التي كانت تسبح بين حصى النهر.

«حصى. لا تتكلمي»

رفع يده محذراً.

«سآتي باحداها لتصعد الى السطح»

وانحنى على النهر، فتقلصت عضلاته تحت بشرته الحريرية. وبطرف اصبعه الصغير شكل رسم دوائر تكسر صفحتها تدريجياً. وفجأة صعدت سمكة الى السطح بحركة صغيرة سريعة، وكأنها منبهة لحركة ما. ورفع الصبي الصغير منها

«هذا رائع يا بوركا. كيف فعلت ذلك؟»

ورفعت عينيها لتنظر اليه ملياً. والتفت بوركا ليبتسم لها فاتسعت عيناه فجأة وكأنه رأى شيئاً غريباً. ووقف في مكانه جامداً لحظات قبل ان يقفز هارباً للغابة. سمرت كرلي في مكانها، فلم تنطق بكلمة واحدة تعرقل بوركا الذي كان يصرخ ناداها لعنة الشمس. لم تعرف ما اخافه تلك الطريقة، ولم تجد اي تفسير معقول لتصرفه. للمواطنين الأصليين الكثير من التقاليد الغريبة، وهم يؤمنون بأن الطبيعة تكشف من يجرؤ على اضعافها ونحرت كرلي بالاعشاب

وانحنت قرب قدميها فالتقطت بصرها لترى سلحفاة كبيرة تتنزه في الماء سنة

النهر وظهرها يلمع بألف لون ولون. واحتوت الدهشة كولين جمعاً في

لحظاتها، فنسيت بركاً رافعتها معه

كانت الساعة تجاوزت السادسة عندما شرعت كولين بالعودة الى المنزل.

وعلى بعد أمتار من البيت الكبير رأت فارساً مقبلاً نحوها. كان دارت.

حتى وهو منتصب على صهوة جواده، كانت تنبع منه قوة لينة. شعرت بها

العقل منه عن بعد ويطيعها

وقفت كولين في مكانها تتأمل الفارس والحصان. الجواد يبدو رائعاً، أسود اللون، حريري البريق، ذيله ورأسه يلمعان بلون الفضة. أما الرقبة فطويلة ومعقوفة، والقوائم رشيقة وقوية، والكتفان عضليتان. كل ما فيه ينمّ عن أصالة كبيرة.

توقف دارت قربها، وبدون أن ينطق بكلمة انحنى وشالها ليلتقطها بين ذراعيه ويضعها على الجواد أمامه. وهمس لها ضاحكاً

«عدت الى الاحلام القديمة. أليس كذلك يا ابنة العم؟»

«أعني تسللي المبكر خارج المنزل»

«نعم. كنت أبحث عنك. لأحفظك الله تركت نافذتك مفتوحة. ألا تستطيعين الشرح أبداً؟ سيكون لي حديث قصير معك يا عزيزتي، بعد الافطار. على ان اخذ من بعض أساليب عنادك يا صغيرتي»

«لا يا عزيزي، ليس الآن. كنت بدأت أستمتع بوقتي»

ضحك ولم يحقق شيئاً. أخذ يربت على ظهر الجواد ليشجعه على صعود التلة الصغيرة

«كم هو جميل هذا الجواد يا دارت»

وانطلقت تربت على رقبته الرافعة.

«طبعاً هو رائع. هذا جواد أصيل، ومن سلالة أصيلة»

«وأعرف أنك كنت دائماً تحب كل ما له شخصية قوية ومستقلة يصعب السيطرة

عليها»

وصهل الجواد معجباً بنفسه، وكأنه يفهم الحديث الدائر بينهما. وضحك دارت معجباً بانفاسه خصلة رقيقة من شعرها تطايرت قرب اذنه

«وفقاً لحب ابنة عمي الصغيرة كولين»

ورفعت كولين رأسها لتتأمل وجهه الأسمر الجذاب. قمصه الرياضي كانت تخفي ظلالاً داكنة على عينيه الواسعتين، وتبرز ابتسامة التذكر تتلاعب على زاوية فمه المرسوم بدقة.

«أنت وسيم جداً يا دارت»

قالتها ببراءة بانفاسها وبريق الشقاوة في عينيها واتسعت ابتسامته.

«ألا تظنين بأنك تستطيعين الوصول الى مبتغاك عن طريق المديح»

«كنت أعرف أني لا بد وأن أجد الطريقة المثلى للتعامل معك»

وكانت تسمع الابتسامة في صوته عندما علق قائلاً:

«كنت اعتقد أن العكس هو الصحيح»

وشد اللجام بين يديه، فأسرع الجواد يشق طريقه بخفة بين تلال الرمل.

«لا بد أن رشيل تراك شديدة الجاذبية»

«نعم. لكن هذا الأمر لا يعني الفتيات الصغيرات»

«حسناً. لن أتكلم في هذا الموضوع بعد الآن»

وعادت لتغرق في جمال الصباح، وجسمها يتأرجح مع اهتزازات الجواد الذي كان يسابق الريح. وانتهى الطريق بوصولهما الى البيت الكبير. وربط دارت الحصان في الاسطبل، والتفت ليساعد كولين على النزول.

«ماما الله ازددت وزناً. أو اني أصبحت أكثر ضعفاً»

وتألقت عينا كولين تأثراً

«حقاً كانت زهرة العقد»

نظر اليها دارت بحنان

«لم تتغيري أبداً يا ابنة عمي العزيزة. ما زلت كما الأمس»

«بانفعالاتي ربما لكني لم اعد طفلة يا دارت. أصبحت شابة ناضجة»

«لا يزال امامك بعد طريق طويل للنضج»

وازعجت كولي من الكلمات، لكنها تذكرت فجأة بوركا وتصرفه الغريب. كان دارت قد انصرف عنها ليتحدث الى احد عمال المزرعة، فانتظرت بصبر عودته اليها وبعد دقائق عاد ليصطحبها الى المنزل.

«دارت. التقيت اليوم قرب النهر اغرب طفل رأيته في حياتي. قال انه ساعدك الأمين»

«لا بد انك تعنين بوركا. شخصية مميزة فعلاً. انه طيب جداً»

«خاف مني. لا سيما عندما تحدثت بهدوء. وفجأة فر هارباً كأنه رأى أمراً مرعباً»

«غريب. ماذا قلت له. هذه القصة تناقض طبيعة بوركا»

«لم أقل له شيئاً. كنا نتفرج على سمكة صغيرة. التفت ليبتسم لي وفجأة صرخ بخوف. بل وهو يردد لعنة الشمس»

تأملها دارت لحظات. قبل ان يرفع عينيها من رأسها الى انعكاس اشعة الشمس على خصلاتها الذهبية.

«اعتقد اني وجدت مفتاح اللغز»

أمسك بيدها، وقادها الى داخل المنزل. توقف برهة في الردهة واكمل طريقه الى غرفة الجلوس، والى المرآة الكبيرة في الصدر حيث ألقت الشمس بكل ثقلها على الاطار الذهبي.

«تعالي كولي. انظري الى نفسك في المرآة»

واقتربت كولي من المرآة لتحدق في صورتها المنعكسة فيها.

«ما الأمر يا دارت. لا ارى شيئاً يلفت النظر»

«بوركا رآه وانا لا ألومه. لون شعرك يلفت النظر في اي مكان. اما الصغير بوركا فاعتبره نوعاً من السحر خاصاً بالشمس»

مررت كولي اصابعها في خصلاتها القصيرة.

«لم اكن لأعرف وحدي ابداً»

«كيف تفسر من انا متأكد انك عصفور الجنة»

«لأني غريبة الأطوار احياناً. وما من احد يستطيع ان يتوقع ما سأفعله بعد دقيقتين»

«هذا مزيج رائع يا صغيرتي»

ويبدو ان مزاج دارت كان يميل الى المزاح في تلك اللحظة، لكن كولي لم تكن بالطبع القلق لتدخل معه في معركة.

«شكراً لاطرائك يا دارت. هذا اذا كان ما قلته اطراء»

«لنتكلم عن هذا الصيد الآن. هيا لندخل الآن لتتناول طعام الفطور. وأعد بأني سأجد لك فرساً تناسب الرحلات اليومية»

«ان تكون مميزة الشخصية يا دارت، لا تعني اني فارسة ممتازة»

«وكيف أنسى يا صغيرتي، عرفت سمعت طريقة التفكير حول الفروسية. انا أعلم انها يكفك الفوز وان تستطيع السيطرة على المهرة السوداء»

وبدت نظرته مليئة بالغضب.

«المهرة السوداء لا تعرفين عنها يا كولي. الفرس عند تربية الطباع رأيتها في حلبات عشيها تلقي عن ظهرها بستة رجال. فتاة صغيرة مثلك لن تستطيع السيطرة عليها. امنعك منعاً باتاً من الاقتراب منها»

«لكن يا دارت...»

«كفى كولي، لا اريد سماع كلمة اخرى في هذا الموضوع. لا اريد حادثة اخرى في هذه المزرعة. ابتعدي عنها هل سمعت»

«نعم. حسناً يا دارت. اهدأ قليلاً. لا حاجة بك الى التهديد. وسأترك أوامر الأمر في غاية البساطة. سأقبل اوامرك على يديك بنظرة للسلام»

«آه لو كان ما تقولين صحيحاً»

ولم تجبه كولي، بل تركته لتذهب الى غرفة الطعام. كان ... وسوزان قد شرعا في تناول طعام الفطور.

«صباح الخير يا ذات العينين الخضراوين»
بادرها ستيفن.
«صباح الخير ستيفن، صباح الخير سوزان»
وابتسمت كرلي لسوزان وهي تضع بعض البيض في صحنها فأعطتها
هذه الأخيرة وهي تحاول أن تبدو أكثر رقة.
«استيقظت باكراً هذا الصباح يا كرلي»
«يبدو أن الجميع استيقظوا باكراً. دارت ألقى علي محاضرته الصباحية منذ برهة»
ودخل دارت الغرفة، وسمع ملاحظتها الأخيرة فعلق ضاحكاً
«لم أبدأ بعد يا كرلي»
وبادلته كرلي متوجهة إلى الاثنين الآخرين»
«هل هو هكذا دائم الصحوية والانشراح، البيه الشبيه التي تفرض سيطرته على
الجميع؟»
وضحك دارت، بدون أن يظهر عليه أي انزعاج من وصفها القاسي له
واستدارت النظر إلى وجهه فرأته هادئاً مع لمسة ساخرة تعرفها جيداً.
«الحمد لله أني انتهيت تقريباً من تناول الفطور»
قالتها لتخفي اضطراب الفكر عندما كانا لمقربتها من الأعماق.
«هل تريد فنجاناً من القهوة؟»
أومأ دارت موافقاً والتفت إلى ستيفن الذي كان يراقبهما باستغراب فإن
أحداً لم يكن يجرؤ على التحدث إلى دارت بهذه الصورة التي خاطبته بها
كرلي.
«ستيفن. الطبيب البيطري سيأتي إلى المزرعة بعد ظهر اليوم. العجول بحاجة
إلى تلقيح. أريدك أن تساعد ماكفي. علينا أن نجمع حوالي ثلاثمائة رأس في
مكان واحد. اهتم بهذا الأمر كشاب طيب»
«أشعر أن الأمر على ما يرام ما دمت لا تطلب إلي وسمها بالنار. أكره رؤيتها مستلقية
أرضاً تستقبل الحديد الحار بدون شعور. لا أستطيع تحمل ذلك»

«ستفعل ذلك في يوم من الأيام رغماً عنك» وانصرف دارت ليتناول
القهوة التي قدمتها له كرلي وهي تسأل:
«هل أستطيع مرافقتكما؟»
قطب دارت حاجبيه قبل أن يقول:
«سيغطيك الغبار يا سوزان. مثلاً لا تحب ذلك»
«أنا لا يهمني الغبار. سأغطي شعري بمنديل»
«لا أعرف. سأفكر في الأمر»
«العمل هو للرجال فقط. أما النساء فتبقين البقاء في المنزل. أليس كذلك يا
دارت؟»
«بلى، من هذا القبيل يا كرلي العزيزة»
انتهى من تناول القهوة، وغادر الغرفة فلحقت به كرلي وقالت بإصرار:
«ما هو القرار يا حضرة الرئيس؟»
نظر إليها بعينين تشعان بالبرد.
«أنت مصرة على المجيء معنا أليس كذلك؟ هذا عمل صعب حتى للمتطوعين إنه
عالم الرجال فقط يا كرلي الصغيرة»
«طالما لا تبلغ ثلاثاً. والحمد لله»
كانت تعرف بفطرتها الأنثوية كيف تصل إلى مبتغاها بطرق ملتوية.
«حسناً هذا عالم الرجال فقط والحمد لله»
«إذاً لا يسمح للنساء بدخوله»
ونظرت مباشرة إلى عينيه الرماديتين الفضيتين بجرأة وربما عليه الرد.
«الأمر غير مسموح. لكني لم أسألك. فتاة صغيرة أعرفها لو وعدتني بألا
تزعجني، وتتدخل في العمل. فتكتفي بالمراقبة عن بعد»
وشكرته بابتسامة رقيقة فيها شيء من الانتصار
«شكراً دارت أعدك بذلك حقاً»

«حسناً نفذي وعدك وإلا...»

ربما كان ذلك من قبيل الهزل، لكن «كولي» رأت على وجهه انطباعاً ثابتاً.

«اعرف انك تعني ذلك يا «دارت»».

وشعرت فجأة بانه يفوقها طولاً وقوة. واحست معصمها يقسو.

«اريد ان اعرف من نبأك عن ذات العينين الخضراوين».

وحررت «كولي» نفسها من قبضته.

«هذا عدل يا «دارت»».

وباغتهما صوت «ستيفن» الذي لحق بهما إلى الشرفة.

«هل رأت «كولي» فرسها؟»

«لا. لم ترها بعد. تعالي معي إلى الاسطبل يا «كولي».»

ولحقت به «كولي» متلهفة ووراءها «ستيفن».

«ستعجبك يا «كولي». انها فرس رائعة».

«كفى يا «ستيفن» افسدت المفاجأة، دع «كولي» تراها أولاً».

وفي الطريق التقوا «بوكا» فاستوقفه «دارت» قائلاً:

«تعال هنا يا «بوكا» أريد التحدث اليك».

والتفت «دارت» إلى «كولي» ودس أصابعه في خصلاتها الحمراء.

«هذه ابنة عمي يا «بوكا». الفتاة التي اخبرتك عنها. اريدك ان تبقى ساهراً على سلامتها يا مساعدي المفضل».

وسحب «دارت» بين أصابعه خصلة من شعر «كولي» التي جعلت مكانها يموج حوله، وتابع قائلاً:

«والدها سرحت شعرها بشعاع شمس. هل تفهم الآن؟»

«نعم. سحر النساء. اليس كذلك؟»

«شيء من هذا القبيل. اذهب الآن».

وابتعد «بوكا» مسرعاً تلاحقه ابتسامة «دارت».

«حسناً فلنتابع طريقنا الآن إلى الاسطبل».

ومشوا بصمت حتى وصلوا إلى مقصدهم.

«انتظري هنا يا «كولي»».

أسرع «دارت» واختفى داخل الاسطبل، ليخرج منه بعد قليل بفرس رائعة. لم تصدق «كولي» بصرها، فالفرس البنية اللون امامها كانت جميلة فعلاً بعينيها المشعتين سروراً، وقوائمها الرفيعة العصبية التي بدت معها كأنها لا تطأ الأرض.

«قولوا لي اني لا أحلم! هل حقاً ستعطيني هذه الفرس يا «دارت»؟»

انحنى «دارت» برشاقة وهو يقول:

«انها لك وحدك يا «كولي». مفاجآت كهذه تجعل الحياة مثيرة».

وابتسمت له بحرارة. كانت سعادتها واسعة.

«شكراً لك يا «دارت». كم انت طيب. اعتقد انا سنصبح صديقين».

«ويا له من اقتراح مقنع».

«هذا ما أقوله».

ووقفا على جانبي الفرس يربتان على ظهرها.

«ما اسمها يا «دارت»؟»

«سوريشا» ابنة الشمس».

ورأت «كولي» انعكاس الشمس على الجسم الطري الذي تحول لونه البني إلى شعلة ذهبية، وهزت رأسها سروراً.

«ما من حاجة لان اسألك لماذا كانت الفرس أعجوبتك».

قال «ستيفن» وهو يستمتع برؤية الفرس والفتاة: كأنهما تليقان ببعضهما، كلاهما تنحدر من سلالة أصيلة، وكلاهما تعتد بنفسها.

وشعرت «كولي» بنظرة «دارت» ترتاح عليها فالتفتت إليه قائلة، بابتسامة طفولية رقيقة:

«شكراً يا «دارت». سأعاملها كأميرة».

«اعرف يا صغيرتي. وانا اعطيتك اياها لهذا. لنمض الآن إلى «بيلا». انها تحتاج إلى

الساعة هذه الأيام.

كان واضحاً أنه يريد صرفها، فابتعدت مبتسمة وهي تلوّح له بيدها. وكان آخر ما رأته صورة «دارت» و«ستيفن» يتوجهان معاً إلى ممر رحلة في المزرعة.

ومرّ ما تبقى من الصباح بسرعة. أمضت «كولي» ساعة في هذه وترتيب حاجياتها، ثم نزلت إلى الحديقة لتساعد «بيلا» و«سوزان» في زرع أزهار جديدة تسمح لـ«بيلا». كانت تستعين بعدد من العمال الوطنيين للاعتناء بالحدائق الشاسعة إلا أنها كانت تصرّ على القيام وحدها بزرع النباتات الطرية والإشراف على الأعمال الأخرى.

وهذا الصباح كانت «بيلا» منهمكة في زرع نوع جديد من البنفسج الداكن وجدته قرب منبع احدى تلال الرمل على بعد عدة أميال من المزرعة.

حرارة الشمس، وعطر الهواء جعلا «سوزان» تبدو أكثر وداً. فمضى الوقت سريعاً بينما كانت «بيلا» تعطي تعليماتها للفتاتين عن أصول العمل، وكيفية غرس البذور.

وبعد الغداء، ارتدت «كولي» سروالاً مريحاً وقميصاً أحمر اللون وجلست تنتظر أن يناديها «دارت». ولم تنسَ خلع شبشبها الحريري الأبيض والأسود، ففي هذه المنطقة يعلق الغبار الأحمر حتى بالمساحات المصقولة الملساء.

كانت الساعة تجاوزت الثانية عندما وصل الطبيب البيطري أخيراً إلى المزرعة. قيل لها إنه سيمضي الليل في «كنغارا». وعادت «كولي» في أرجاء المنزل بدون هدف معين. كانت تخشى أن يعود «دارت» عن رأيه ويذهب بدونها.

سمعت صوته في الحديقة فوقفت قرب النافذة لتراقبه عن بعد. كان يتحدث إلى الطبيب البيطري، ورجل آخر لم تره من قبل. وحاولت «كولي» أن تنظر إلى ملامح «دارت» بموضوعية لكن الأمر كان مستحيلاً. فهو مقرب جداً إلى قلبها ويستأثر بجزء مهم من عواطفها، وأحست أمامه بمزيج متناقض من المشاعر لم تستطع أن تحدد معناها بعد.

وابتسمت «كولي» لنفسها. لم يكن «دارت» يتصرف فعلاً كرعاة البقر أو

كأصحاب المواشي. قامته الرشيقة، وأناقته المميزة، وحركاته العفوية، كانت كلها تشير إلى رجل ينحدر من عائلة ارستقراطية عريقة.

وفجأة التفت «دارت» متوجهاً إلى المنزل وهو ينادي باسمها. فطارت «كولي» إلى الشرفة، وكانت تقف على الدرج وهي تسرع إلى حيث كان ينتظرها.

نظر إليها «دارت» بمزيج من الفخر والدعابة وقال:

«كنت أعلم أنك ستلبين النداء بسرعة لكني لم أتوقع أن تصلي عليّ كالسهم. هل فعلاً جئت بهذه السرعة».

ربما كان فيه شيء من التحدي، ولكن بريق عينيها والضحكة الخفيفة التي لازمت شفتيها قرر «دارت» الاستسلام حتى قبل دخول المعركة.

«تعرفين «فرانك كيندي» البيطري. كما أظن يا «كولي»».

ابتسمت «كولي» وهي تمد يدها مرحبة بالطبيب. لم تنسه. كان غالباً ما يزور المزرعة في الأيام الغابرة، ويناديها الطبيب الصغيرة.

«أنا سعيد جداً بعودتك إلينا، يا آنسة «كولي». يا آنسة «كولي»، واسمحي لي بأن أقول لك إن الأيام حولتك إلى شابة جميلة فعلاً».

«أسمح لك بقول ذلك يا دكتور «فرانك»».

«كف عن إطرائها يا «فرانك»، ستدير رأسها، وستصاب بالغرور ولن نتمكن من السيطرة عليها بعد ذلك».

والتفت «دارت» إلى الرجل الآخر قائلاً:

«كولي، أعرفك على «فرانك دولاني» هنا رجل لكل المهام وكل الفصول».

التفتت «كولي» لتنظر إلى الرجل الواقف أمامها، فرأته طويل القامة، متناسق التقاطيع، فاتح الشعر، يقارب عمره سن «دارت»، أي انه يبدو في أوائل الثلاثينات، واستقرت عيناه البنيتان على «كولي» بتمعن فيه الكثير من الإعجاب.

«أنا سعيد بمعرفتك يا آنسة «كولي». «دارت» كلمني كثيراً عنك».

وكان لصوته رنة عميقة رخوية. والتفت كورلي الى دارت فوجدته ابتعد عنها ليفتح باب السيارة الكبيرة المرهقة على بعد امتار قليلة

«هيا يا كورلي، اصعدي. حان وقت الذهاب».

جلس الرجل في المقعد الخلفي، واستراحت كورلي قرب دارت الذي انطلق بالسيارة سريعاً صوب حظائر الماشية. وعند وصولهم كان رعاة البقر يأتون بالقطعان الى الاماكن المسيجة التي انشئت خصيصاً لجمعها. وكان العمال قد امضوا يومين كاملين يجوبون اراضي كينغ الشاسعة بحثاً عن القطعان، لفصل الحيوانات المحتاجة الى تطعيم وجمع. كان هناك حوالي ثلاثة الاف رأس من الماشية مجتمعة في الحظيرة المؤقتة تتراوح اعمارها بين يوم وشهر واحد، وكلها برفقة امهاتها

ولمحت هالة من الغبار الاحمر لثلاث رجال كانوا يرتدون ثياب رعاة البقر التقليدية، وهي تشابه كثيراً ازياء رعاة البقر في ولاية تكساس الاميركية. قبعة عريضة تقي عيونهم من حدة الشمس، وسروال جلدي ضيق، ومنديل حول العنق، وجزمة عالية من جلد العجل، وقميص مزين بربطات فاقعة اللون، وحزام عريض من الجلد. وفي المناسبات الخاصة كان الرجال يستبدلون القميص فقط بآخر من الحرير المطرز برسوم زاهية

في الغرب كان الرجال يبدون اكثر طولاً ورشاقة، واعرض اكتافاً من زملائهم في الشرق، وكذلك تبدو وجوههم اكثر رجولة وقوة.

ورأت كورلي حوالي اربعة عشر رجلاً من رعاة البقر يتحلقون حول الحظائر المسيطرة على الروابي التي بدأت تظهر عصبيتها

أوقف دارت السيارة فخرج منها اولاً سايلاء والطبيب واتجها الى الحظيرة الاولى. ربطت كورلي المنديل حول رأسها وهمت باللحاق بهما. فاوقفها دارت.

«مهلاً يا ذات الخصلات النارية. هذا انت اول محنة. قلت لك اني اسمح لك بمشاهدة ما يحدث عن بعد».

«اني ترغبين ان اكتفي بالتحديق».

ورسم دارت بيده خطاً وهمياً.

«قرب السيارة. لا تقتربي اكثر من ذلك. بعض الثيران في القطيع قد تكون خطرة. هل من اسئلة اخرى؟»

«لا يا دارت».

«حسناً».

وابتعد عنها ليتحدث الى الرجال. فاختارت كورلي مكاناً ظليلاً تحت غصن الارز انتصبت وحدها. خلعت قبعتها ووضعت نظارتين داكنتين على عينيها؛ الشمس بدت اكثر اشراقاً في السماء الصافية، والظلال انكمشت بشكلها الاكثر طوال خط الافق. اما الغبار فتراكم كثيفاً على كل الوجوه.

على بعد امتار قليلة منها رأت كورلي ستيفن بقميصه الازرق الفاتح يتحدث الى احد الشبان الاصليين. عرفته برغم المنديل الذي غطى نصف وجهه لحمايته من تنشق الغبار الخانق.

وبدأ عمال المزرعة بطرح العجول ارضاً لدمغها بحرف ساخن. وسكت فجأة صهيل الخيول، وكأنه شعر بتهديد الحديد الساخن الذي سيهال بعد لحظات على جلده. وكانت كورلي اشارة ستيفن نحوه من هذا الاجراء الضروري لحصر رؤوس الماشية الخاصة بمالكها كينغ. فابعدت نظرها عن القضبان المشتعلة التي تضع حوافر ساخنة على العجول الخائفة، لتراقب الطبيب المنهمك في تلقيح الحيوانات الاخرى التي عرفت طعم النار قبل سنوات، وراحت تنظر بحنان الى صغارها

بعد ساعة من العمل الشاق، التف الرجال على غداء طباخ المزرعة، وهو صيني من مقاطعة كانتون كان طاهياً ماهراً، والمسؤول عن تأمين المؤونة الغذائية للبيت الكبير ومعظم العمال.

جلس على جذع شجرة كبيرة، وعلى وجهه المرح الصغير ابتسامة قلما لا يراها الا على وجوه الراضين. وتذكرت كورلي كم كانت تستمتع برفقته السابقة

وهي طفلة. كان صديقاً لكل الأطفال في المزرعة. ومشت كولي إليه وهي تحاول
أن تتجنب عيون الفتيان المتراكمة في الممر
مرحباً يا [illegible] كم أنا سعيدة برؤيتك مجدداً.
وأنا كذلك يا آنستي.
وقام من مكانه لينحني لها باحترام. عينيه ما زالت فيه تلك النظرة الطفولية
البريئة. وأشارت كولي بإصبعها إلى ذلك كوب من الشاي.
هل أنهيت فطورك؟
ولم تكد تنهي كلماتها حتى امتدت [illegible] بسكينة ليقطع لها جزءاً كبيراً منه
هذه القطعة لك وحدك يا آنستي. هؤلاء الرجال لا يشعرون بالسعادة إلا إذا
أطعمتهم حتى شبعوا.
وأشار بيده إلى قطعة وضعت فوق رأسه.
انتظري يا آنستي. سأجلب لك فنجاناً من الشاي. كنت أعرف أنك ستأتين اليوم
ولذا أحضرت لك كوباً جميلاً من الزجاج الفضي.
شكراً لأفكارك اللطيفة.
وانحنى لها مجدداً. فبادلته كولي الانحناءة مبتسمة. وعادت إلى مكانها
القليل. الرجال ما زالوا يتوافدون إلى عربة الطباخ. فتوقعت أن يلحق بهم
دارت ليستريح قليلاً. إلا أنه تابع عمله إلى جانب القطيع.
وتناولت كولي كوب الشاي ببطء. وعندما فرغت منه، وقفت لتعيده إلى
الطباخ. رفع العمال رؤوسهم تحية لها عندما مرت مبتسمة قريباً منهم. كان من
النادر وجود امرأة في مكان كهذا. وعرفت كولي عضلات [illegible] من التعب
كان الجو شديد الحرارة.
ولم يتوقع أحد ما حدث بعد ذلك. [illegible] كانا يحاولان
السيطرة على ثور كبير لكنه تمكن من الفرار من قبضتهما، وفي عينيه الصغيرتين
تهديد بالانتقام من معاملة الأشخاص. واتجه الثور الغاضب نحو الفتاة التي بدا
شعرها الكستنائي وكأنه شعلة من النار. الرجال كلهم تحركوا في الوقت نفسه.

فسقطت أكواب الشاي، وتبعثرت قطع الحلوى، وامتدت الأيدي إلى الأسلحة في
محاولة يائسة لتجنب الكارثة.
جمدت كولي مكانها والخوف يشلها، وراقبت [illegible] المعركة. وكان
دارت أول من تمكن من الوصول إليها بسرعة. عاد بجسده ودفعها بعيداً
عن طريق الحيوان الهائج. فتعثرت، وسقطت، وجرحت ركبتيها.
اندفع الثور نحوها والشرر يتطاير من عينيه. وأحست كولي بالرعب
يعصر معدتها. أصبح دارت في خطر حقيقي. وجه الثور بدا عنيفاً كالصخر
وتقلصت عضلات جسمه استعداداً للمعركة. الرجال كلهم جمدوا في أماكنهم، وبدا
وكأن أحداً منهم لا يجرؤ حتى على التنفس. فالثور كان قريباً لدرجة لا يمكن معها
تجنب الصدام. ولذا كان لا بد من المواجهة. ثبّت دارت قدميه في الأرض
و[illegible] أمسك بذيل الحيوان فور اقترابه منه. وقبل أن يستعيد الثور
[illegible] كان دارت قد تمكن من إفقاده توازنه، فسقط أرضاً وفي
أعماقه [illegible] مزيج من الغضب والخوف. وأسرع الرجال من كل صوب
للسيطرة عليه، وربط قوائمه الأربع.
نظرت كولي إلى دارت ورأت قميصه ممزقاً ملطخاً بالدماء عند
الكتف. استطاع الثور أن يطعنه بقرنه قبل أن يسقط أرضاً. وركضت كولي
نحوه بسرعة وهي تشعر بالغثيان. ارتجفت وكادت تسقط لولا أن أسرع [illegible]
[illegible] إلى جانبها ليساعدها على الوقوف.
هل أنت بخير يا كولي؟
[illegible] أن يدعوها بالآنسة كجميع الآخرين في تلك اللحظة لم يكن له أي
معنى. ولاحظت كولي رغم [illegible] طابع [illegible] على وجهه لا أثر
للتعبير الواضح على الخوف الذي عرفه الجميع قبل ذلك.
كانت [illegible] مرعبة فعلاً يا كولي. شكراً لله أن دارت من أمهر رعاة البقر
[illegible] بما يتطلب جرأة فائقة.
وسمعت كولي الكلمات دون أن تفهم معناها، ففي ذهنها لم تكن ترى إلا

نهض «دارت» المطلع بالمعطف، فهبت إليه وهي تحاول السيطرة على الدموع
التي بدأت تحرق عينيها. كان الطبيب يكشف على الجرح
«هل ستنظف الجرح الآن يا «دارت»؟»
أمسكت «كوني» بيد «دارت» وراقبت شفتيها تأوهاً.
«آسفة يا «دارت». الحق علي في ما جرى».
«اعرف يا عزيزتي. هذا يؤكد لي أن الشقراوات الشعر لا يحتملن فعلاً من شربهن.
بل ربما كن أيضاً أكثر تسبباً بالمشاكل».
وجالت عيناه على وجهها الطفولي، واستقرتا أخيراً على فمها الحزين الذي فقد
أثر المرح والشقاوة. رفعت «كوني» باضطراب خصلات الشعر المتهدلة على
جبينها.
«هل تشكو يا «دارت»؟ لن أسامح نفسي أبداً على ما حصل».
ند عنه صرخة ألم وكمشت كتفه، فكادت «كوني» تبكي خوفاً عليه. رفع
الطبيب رأسه مؤنباً «دارت».
«لا تخافي يا آنسة «كوني». «دارت» يمزح معك. رجل بعضلاته يحتاج إلى أكثر من
قرن ثور ليبقى في الفراش. لا أظن شيئاً سيتعلق بمرفقه».
«لكنه ينزف بشدة يا دكتور «دارت». أرجوك قل لي شيئاً أي شيء».
«ما بك، هل تعتقدين بأني سأموت قريباً أو أن تلقي من بعده السهولة يا
عزيزتي؟».
وجالت ابتسامته الساخرة تتراقص على شفتيه. ثم كست «كوني» بحسن
وأبلت أرضاً بجانبه، فاحتواها بذراعه القوية، وشدها قريباً من صدره.
«اهدأي يا صغيرتي. كل شيء سيكون على ما يرام».
وتركها تستريح قربه بضع دقائق ثم ابعدها عنه بحزم.
«هيا معي الآن لا نستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك. «مايك» سيعيدك إلى المنزل».
«واعتقد انه من غير المجدي أن اقترح عليك العودة معي، لتنظيف الجرح؟»
«لا سأبقى هنا. فرانك سيعتني بي».

ولاحظ «دارت» للمرة الأولى الدموع الحبيسة في عينيها، والتي تحاول
«كوني» جاهدة منعها من السقوط.
«كنت اعتقد أن امرأة عاقلة كـ«كيت» يستطعن السيطرة على انفعالاتهن أكثر
من ذلك».
«ربما كنت استثناء للقاعدة».
«لا يا عزيزتي. كنت دائماً مميزة الشخصية. واعتقد اني اجبرت على تقبلك كما انتِ».
استرقت «كوني» نظرة إلى وجهه، فلم تستطع أن تتبين ملامحه تحت القبعة
العريضة.
«كل ما استطيع قوله، يا «دارت» هو اني آسفة».
«حسناً على الأقل تعترفين بخطئك».
وقاطعهما صوت «مايك فرانكلين» قائلاً:
«أنا بانتظارك يا آنسة «كيت»».
«شكراً يا سيد «فرانكلين»».
ونهض «دارت» من مكانه ليرافقها إلى السيارة، وما ان استقرت «كوني» في
مقعدها حتى صفق وراءها باب السيارة بعنف.
«اذهب بها الآن يا «مايك»».
قالها بقسوة، وانصرف عنها مسرعاً. اغمضت «كوني» عينيها وساد الصمت
بضع دقائق قبل ان يقطعه «مايك» قائلاً:
«لا تدعي الحادث يؤثر عليك يا آنسة «كيت». كان من الممكن أن يحصل الشيء
ذاته لأي كان».
«لكنه لم يحدث لأي كان غيري. «سيدريك» كان يقول دائماً النساء من
الديناميت القصير لكل سوء يحصل».
«هذا تهرب من الحقيقة».
واسترق «مايك» نظرة سريعة اليها، وعاد ليحدق في الطريق الممتدة امامه.
إنه مع «دارت» لم تكن كما تصورها. كان يتوقع فتاة طرية القلب عادية

الجبال. لا عند الانثى الرشيقة تحسب الجاذبة اللامعة الشقراء الشعر
«كم انني لو لم يحدث ما جرى».
لم تستطع كولي ابعاد نظرها عن الموضوع. فنظر اليها مايك بجدية
قائلاً:
«ماذا الأمر يا كولي... هل تسمحين لي بأن ادعوك باسمك الأول. فبشكلك
السحري الرقيق لا تبدين ناضجة بما في الكفاية لحمل لقب الآنسة كينغ».
وسيطرت كولي فوراً على ارتباكها فنهضت ورفعت كتفيها باعتداد قائلة
«أعتقد بأنك ستكتشف أني استطيع أن أكون الآنسة كينغ عندما تتطلب
الظروف ذلك».
قالتها بتعالٍ، وضحكت النظرة الحائرة في عينيه.
العشاء كان مرحاً رغم اصابة مارت وشاركهم فيه الطبيب البيطري
ومايك فارلاني.
انهمكت كولي في مراقبة الوجوه الستة.
سوزان كانت مشغولة بما يقول لها مايك فارلاني، بينما كان مارت
والطبيب يتحدثان عن شؤون المزرعة، وتشاركهما بيللا بين حين وآخر بتعليق
يدل على سعة اطلاعها وخبرتها في هذا المجال. أما ستيفن فكان يستمتع
بطعامه بحماس الفتى الذي لا هم له إلا أن يكبر. والتفت ستيفن اليها فجأة
«هل انتقلت الى البرية؟
في اللحظة التي هجم عليّ الثور تساءلت عما كنت ستفعله انت في مكاني».
«لا بد انني كنت سأصاب بالاغماء».
وضحكا عالياً وشعرت كولي بنظرة مارت تستريح عليها. كم يبدو
وسيماً هذا المساء. حادث بعد الظهر لم يترك اي اثر عليه. وبدون سبب واضح
عضت كولي على شفتها السفلى. ما بها؟ ما هذا الاضطراب؟
وكأن مارت احس بالصراع الثائر في أعماقها فأبعد عينيه عنها مجيباً
ليصغي الى حديث العمة بيللا. وأخذت كولي ترسم باصبعها دوائر وهمية

على مفرش الطاولة وهي لا تفهم سر تسارع نبضات قلبها
طبيعتها الرزينة المنفتحة على الحياة، طرأ عليها تغير مفاجئ، تلمسه من خلال
الأحاسيس المتناقضة المتلاحقة في أعماقها. وأحست بالخوف منه وايضاً من
نفسها. انها لا تريد الوقوع في أحابيل هذه العلاقة الجديدة التي تدفعها دفعاً
الى عالم طفولتها. انها اكيدة من امر واحد فقط وهو ان مارت يريدها لمدة
ما رابطة رائعة. لا تسبب له أي مشكلة. وفي الأشهر الستة المتبقية من
وصايته عليها ستحرص كولي على البقاء كما يريدها.
«اخبريني هل انت دائماً منشغلة الى هذه الدرجة».
كان ستيفن يحاول جاهداً لفت انتباهها.
«ما بك؟ كنت تبدين وكأنك منهمكة في حل مشاكل العالم كله».
«ربما كنت افعل ذلك فعلاً. في الحقيقة كنت اتساءل عما يجب عليّ تناوله مع
القهوة».
وضحكت كولي فاقترحت انواع ستيفن. ضحكتها الخفيفة كانت
تضج بالرقة والحيوية. فهمس لها
«كولي، ما رأيك بالفكرة التي سأطرحها عليك».
«فلنسمعها كلنا يا ستيفن».
والتفتت الوجوه كلها الى مارت الذي نطق بكلماته الأخيرة في نبرة جافة
جعلت ستيفن يسرع بالاجابة
«كنت سأقترح عليها افتتاح حلبة الرقص».
وقالت كولي ضاحكة:
«يا لها من فكرة رائعة يا ستيفن. أعتقد اني سأستمتع بالرقص لو وجدت فعلاً
الرفيق المناسب».
«هل تشفقين عليّ يا صغيرتي؟».
والتفت ستيفن الى شقيقه ومايك فارلاني.
«هيا معكما».

نهض «مايك» من مقعده ليساعد «بيللا» على الوقوف موجهاً بتهذيب
كرسيها من الطاولة ثم قال:
«هيا اسبقني يا «ستيفن» مع الموسيقى الناعسة وسألحق بك.»
وعلقت «كرلي» «سوزان» قائلة:
«الاثنان كرماء علينا اليوم. هل تعتقدين ان السبب يعود الى الشعور في هذا
المساء؟»
«لا يهمني السبب. سأستغل الظرف الحالي.»
وللمرة الاولى ترى «كرلي» عيني «سوزان» تتألقان فرحاً وشفتيها تبتسمان
في ابتسامة عريضة مشرقة.
واسرعت «سوزان» وراء شقيقها «ستيفن». انصرفا بعد لحظات في مناقشة حادة
حول الالحان الصالحة للرقص. اما «كرلي» فنظرت الى «دارت».
«عزيزي «دارت»، أمل ألا تكون تضايقت من الفكرة.»
«لا يا عزيزتي العروس. اقبل ما يحلو لك طالما انت في حدود المعقول.»
ابتسامته الناعمة دلت بوضوح على انه يريد مداعبتها. فتغيرت مجرى
الحديث.
«كيف تشعر الآن؟»
وعرفت «كرلي» ان الجواب لن يكون فيه اي اثر للجدية.
«كيف تريدني؟»
«هادئ أكثر من السابق»
وتعلقت عيناها بوجهه الرجولي تبحثان عن سبب التشنج الذي طرأ على
علاقتهما. هذا الاحساس الجديد بالاضطراب والتوتر لم تكن تعرفه من قبل.
وساد صمت ثقيل بينهما. تابع فيه «دارت» مراقبة «كرلي» عن كثب
فانتفضت ساخرة.
«ما بك؟ ألا تعجبك الفتيات الشقراوات الشعر؟»
«أنا معجب بك انت وحدك»

كلماته خلت من السخرية. كان يتكلم بجدية.
«ماذا حدث لنا يا «دارت»؟»
«انا لم اتغير لكني اعتقد انك تغيرت.»
«تقصد ان تقول انك كرهتني.»
«هل تعتقدين ذلك؟»
لم تستطع «كرلي» ان تتحمل سخريته منها هذه المرة. فابتعدت عنه
غاضبة. ترى ورمقها بضحكته الهازئة. تباً لك «دارت»! يتعامل معها وكأنه الشيخ
الطاغي. كيف لم الاحظ ذلك من قبل؟
وارتمت امام «مايك فارادي» وهو يراها مقبلة نحوه. كم هي رشيقة،
ورقيقة، وانيقة! وخطيبته ستكرهها من النظرة الاولى. هذه المرأة لن تتنازل
لاي كان. فهي من النوع الذي لا يسمح لاي كان، ولاي شيء بالتدخل
في مشاريعه. ووالدة «كيفن» كان من احد مشاريعها وبعده كل الاراضي
التابعة لعائلة.
«تبدين رائعة يا آنسة «كينغ».»
«شكراً يا سيد «فارادي». الاطراء موسيقى ناعمة تحب سماعها اي امرأة. ويعلم
اني فهمت منذ قليل باني ما زلت في طور الطفولة.»
استرق «مايك» نظرة من فوق رأسها الى «دارت» وعلق ضاحكاً:
«اعتقد ان المرأة لا تصبح امرأة فعلاً الا لدى انجاب طفلها الاول.»
«اشك في ذلك يا سيد «مايك». بعض اقرب الصديقات الى عوانس. لكني لا
اشك بانوثتهن لحظة واحدة.»
«لندع الحديث جانباً. هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟»
كان «ستيفن» و«سوزان» يرقصان وسط الغرفة دون حماس. واقترب
«كرلي» و«مايك» منهما فصرخ «ستيفن» باحتجاج، مشيراً الى شقيقته:
«لا يمكن ان يستمر الوضع على هذا الشكل. اريد ان اتمتع في رقصتي. «مايك» دع
«كرلي» لي وارقص انت مع «سوزان».»

وحاول « مايك » ان يخفي انزعاجه « لسوزان » لكن في غمرة صخبه وما لم يكن عطفاً، يبدو انها بدأت تتعلق به عاطفياً.

ولم يكن « مايك » مخطئاً، اشرق وجه « سوزان » حين لامسها ذراعه، ولمعت عيناها فرحاً. لاحظت « كرلي » النغم الذي طرأ على ملامح « سوزان ».

«الحب لعبة قاسية يا « ستيفن ».»

«ما سبب هذه الملاحظة الآن؟»

« سوزان ». ربما لا اود ان أكون متشائمة لكن هل هي...»

«لا أعتقد انه على الاقل ليس في الرحلة الحالية. « مايك » يمشي على خطى « دارت ». اعتقد انه ايضاً عازب لا يمكن الايقاع به بسهولة، والتقيد بالزواج. انا لم التق حتى الآن برجل لديه قدرة الاكتشاف بالفتيات كالتي يملكها « دارت ». انظري كيف صمد امام كل محاولات « روشيل » التي استخدمت حتى الآن كل خدعها الانثوية للايقاع به.»

«لا تكن قاسياً يا « ستيفن ». لا يمكن ان تكون « روشيل » بهذا السوء.»

«امسكي بنفسك. لكني اخاف ان تذهب افكارها في رءوس. قالت وقلت مداعبة:

بي.»

«لا تستعمل اساليبك الملتوية معي يا « ستيفن ». انا محصنة ضد الرجال. على الاقل خمسة اعوام مقبلة.»

«لا استحق كلمة واحدة مما تقولين. فتاة جميلة مثلك لابد ان تتزوج قريباً.»

ورنت اصداء كلماته الاخيرة في الغرفة، مع انتهاء لحن الاغنية. فسمعها « دارت » واقترب منهما.

«من هي التي ستتزوج قريباً؟ هل تخفي علينا « كرلي » شيئاً ما يا « ستيفن »؟»

«لا. كانت تقول بانها لن تفكر بالزواج قبل خمس سنوات على الاقل.»

«ولكن اذا وجدت الشخص المناسب. لا تنس انها لن تستطيع الزواج الا بموافقتي. فانا سابقى وصياً عليها لأكثر من اربعة اعوام.»

وبدون سبب محدد شعرت « كرلي » بسعادة غامرة. وفتحت ذراعيها لابن

عمها تداعبه قائلة:

«هل تجد في نفسك القوة الكافية للرقص؟»

ولم تتوقع ان يستجيب « دارت » لندائها، فوجهه وجسمه كان كافياً ليقعده عن الحركة. لكنه اطفأ سيكارته، ناهضاً بجسمه الرياضي في الهواء، وتوجه الى « كرلي » ليحتضنها بين ذراعيه، ليميلا معاً على ايقاع الموسيقى.

وقاد « دارت » خطوات « كرلي » برشاقة وليونة في الحركة. فتبعته طائعة وهي غارقة في ظل رجولته. وللمرة الثالثة في تلك الامسية تشعر « كرلي » بالتوتر والاضطراب بدون سبب معين.

«انت لست بالمرأة التي كنت تدعين قبل قليل.»

لكن « دارت » ومع رفع قبضته عليها فابتعدت عنه. لم تتحمل كرامتها مزيداً من السخرية.

«أعتقد ان طريقك الفارغ هو السبب يا « دارت ».»

ولم يرد عليها بل التفت الى « بيلا » ليرفعها عن مقعدها قبل ان تدرك ماذا يحدث.

«يا الهي يا « دارت ». انا لم ارقص منذ زمن طويل.»

وضاع احتجاجها في صخب الموسيقى، وتصفيق « سوزان » و« ستيفن » اللذين راقبا تريسيا يشجعانها على الرقص. ودبت الحيوية في جو من المرح والانطلاق. وبعدها حتف الانغام لاحظت « كرلي » لمحة ألم عابرة على وجه « دارت » تعلقت قائلة بسخرية:

«انت لست بالقوة التي كنت تدعي قبل قليل.»

٤ ـ سطوة الوصي

ما كاد يمر يومان على عودتها من احدى زياراتها الروتينية الى العاصمة حتى كانت روشيل ليمانت تدق باب كاتشا. لم تأت لتفقد اصدقائها كما قالت، بل لتلقي نظرة على الأبنية الجديدة. وكعادتها وصلت روشيل في وقت لم يكن احد يتوقع حضورها، اي قبل موعد الغداء بقليل.

كولي لم تكن في المنزل. كانت تتجول و بوركا في احضان الطبيعة يخبرها روبوكا عن اسرار الغابات والأرض والكائنات التي ترتبط بتقاليد ومعتقدات البداوة.

وقفت كولي باحترام قرب بوركا الذي اختار بقعة محددة من الأرض اخذ يضربها بعصاه ثلاث مرات. لكولي ابدا قادر على ايجاد الماء حيث يعجز الرجل الأبيض عن ذلك. لم تسمع الضربة الثالثة اي صدى للعصا في الأحجار الرملية. وعند الضربة الرابعة تلقت لسم من الحجر فتفجرت من تحته مياه عذبة نقية. مد بوركا يديه واخذ يشرب من المنهل العذب. اما كولي فراحت ترطب بالمياه الباردة وجهها الذي لوحته حرارة الشمس.

ثم قام بوركا بتغطية المكان السري الذي اكتشفه وتركه تحت حماية الثعبان الكبير رمز المحاربين في قبيلة الكاكادو. فهذه المياه سرية ويتقاسمه ورثتها من اجداده. وقد وجدت كولي الشعور بحرية انها تشاركه الشرف العظيم الممنوح له.

ومرت ساعة اخرى قبل عودتهما الى المنزل الكبير. توقف بوركا في الحديقة ليلهو قليلا بخرطوم المياه يداعب به الزهور البرية المتعطشة للمرح، وراقبته

كولي فورا قبل ان تقول له انها ذاهبة لتناول طعام الغداء. والتفت اليها موجها رأس الخرطوم في يده. فغرقت كولي تحت سيل من المياه المتدفقة. ضحكت عالياً وراحت تتساقط من شعرها وفستانها وحاولت كولي ان تتسلل الى المنزل من الدرج الخلفي، فلا يراها احد وهي في هذا الوضع. لكن بيلا فاجأتها في اللحظة الاخيرة:

«يا الهي ما بك يا كولي. هل سقطت بالنهر؟»

«لا. كنت العب و بوركا فأغرقني في الماء بدون انتباه».

«يا له من ولد مشاغب».

التفتت بيلا الى الشرفة وصفقت منادية بوركا. فاسترق اليها نظرة واحدة وهرب راكضاً خوفاً من العقاب.

«لا تقلقي يا سيدتي بيلا لم يقصد بوركا...»

وتوقفت عن الكلام حينما رأت سوزان التي خرجت من المنزل وفي يدها كأس المشروبات. ارتدت تنظر الى كولي بكثير من السخرية.

«تابعت بيلا برمة على هذا هو الناس فعلا لتذهب الشائعات الى مطبخها» كولي تبدو كطفلة عابثة بفستانها المبلل، وبقطرات المياه تتساقط على جبينها واذنيها من المنديل الذي ربطت به رأسها على طراز القراصنة. سوزان بدت مستاءة فعلا من مظهر كولي.

«كولي يا الهي ماذا فعلت بنفسك؟» روشيل جاءت لزيارتنا.

«اهلا بها. أسمعت هل لي بدقائق قليلة اذهب فيها لاسبح هذه الشلالات الصغيرة عن وجهي... لن اتأخر».

وركضت الى غرفتها وهي تسمع صوت روشيل يرن وراءها ساخراً:

«خذي وقتك فأنا ابنة عم دارين».

وبعد دقائق عادت كولي الى غرفة الجلوس. فتاة انيقة تماماً. فستانها الاخضر الفرح جعلها تبدو كزهرة صحراوية برية. كانت روشيل تروي طرفة لجمهورها المتجاوب، لكنها توقفت فجأة عند دخول كولي لتعلق ضاحكة:

«لم أعرف أنك تحب الشعر.»

قالت روشيل: «طبعاً، أنا سعيدة لمرافقته.»

«أخبريني يا آنسة كرولي عن السبب الذي دفع بك لاختيار كل هذه التساؤلات؟ لا بد أنك ستجدين المكان هنا بشكل مختلف، ستشتاقين إلى الأضواء الباهرة ووسائل اللهو الحضارية.»

ابتسمت لها كرولي بمرارة مصطنعة، وفي عينيها دعابة.

«أعتقد أنني سأجد رجالاً أكثر هنا يا روشيل، أليس كذلك يا كرولي؟ الجميع يفعلون ذلك.»

«أنت إنسانة صريحة جداً. أليس كذلك؟ لكن لم تجيبي عن سؤالي بعد.»

رغبت بيلا بمساعدة كرولي مخافة أن تقاطعها روشيل بهذا الأسلوب

«هنا كان بيت كرولي، وسيبقى ما دامت ترغب في ذلك. بعض نسائنا يجابهن أضواء المدينة لفترة، لكنهن يعدن دائماً إلى الجذور. فلهذه المنطقة النائية سحر خاص بها، يأسر كل الذين عاشوا فيها، وسواء أحبها المرء أم كرهها فلا بد أن يعود إليها.»

وتأثرت كرولي من محاولة بيلا ترطيب الأجواء، وتساءلت عن السبب الذي جعل سوزان تتعلق إلى هذه الدرجة بصديقتها روشيل. لقد شعرت بغريزتها الأنثوية أن هذا النوع من النساء لن يكون أبداً صادقاً مع واحدة من بنات جنسه.

كانت روشيل تتمتع بجمال أخاذ. شعرها الأسود المسرح المنسدل مرفوع بعيداً عن جبينها عند أعلى رأسها بعقدة أنيقة. بشرتها الصافية كانت تميل إلى سمرة برونزية، وفي حركاتها اللامبالية رشاقة كسولة. أما عيناها الداكنتان فتشبهان القهوة وتلمعان ببريق ساخر. كانت روشيل تتكلم بشيء من التعالي وإلى جانبها سوزان مأخوذة بما تقوله صديقتها وهي بادية السعادة بالزيارة الجديدة.

«سوزان هل لك يا عزيزتي بجلب كوب من الشراب البارد فإني عطشى من طول

الطريق.»

كان صوت روشيل آمراً، فانطلقت سوزان بسرعة، وبعدها كرولي بعد نظر إلى بيلا بتساؤل. فابتسمت للأخرى

«روشيل ستبقى معنا ليومين أو أكثر، وهكذا يتسنى لكما الوقت لمعرفة بعضكما البعض، وليستطيع دارك أن يرتب نزهة إلى نهر اللاك. هذا إذا لم يكن مشغولاً.»

وعادت سوزان إلى الغرفة تحمل صينية عليها ثلاثة أكواب من الشراب المثلج. فرفعت بيلا حاجبيها

«ولم لا، أريد كوباً من الشراب يا سوزان.»

وتمتمت سوزان وهي تقول باضطراب:

«آسفة يا أمي...»

«شكراً لك يا عزيزتي.»

تضايقت بيلا من قلة ذوق ابنتها، ستتكلم معها لاحقاً في هذا الشأن.

ونقلت روشيل انتباهها إلى كرولي.

«مشتاقة أن نعمل على جعل الأشغال تمضي بيننا. في أي حال ستجد اللهو لم يسرعة كمثل. لقد تركت الاستقلال الذاتي في السرعة وقت تمكن حتى الأمر في ساعة دارك.»

كانت كرولي تضحك لكنها تمكنت من السيطرة على نفسها. دارك! لم تسمع أحداً من قبل يناديه بهذا الاسم، حتى والدته.

خرجت بيلا من الغرفة لتتوارى انزعاجها من تصرفات روشيل. قالت إنها ذاهبة للإشراف على اللمسات النهائية لطعام الغداء. أغلقت الباب وراءها وهي تسمع روشيل تقول لابنتها سوزان:

«عزيزتي سوزان عليك أن تفعلي شيئاً في شأن شعرك هذا.»

واحمر وجه سوزان وهي تصغي باهتمام إلى روشيل تصف لها بعض العلاجات الخاصة بالبشرة الجافة، ولم تتحمل كرولي مزيداً من ذلك. نهضت

من مقعدها، اعتذرت من الفتاة بيث وخرجت الى الشرفة.

مرت ساعات بعد الظهر ثقيلة على قلب كورلي تماماً... كانت تشعر بحنين روشيل للحظات التي تحدثان فيها سوزان على الأقل كان تستمتع بوقتها غير مهتمة للملاحظات المضحكة التي كانت تقوم بها صديقتها على حسابها. كانت منهمكة في تقليب صفحات مجلات الأزياء الامريكية والبريطانية التي احضرتها روشيل معها.

وحاولت كورلي جهدها ايجاد قاسم مشترك للحوار بينها وبين هذه الفتاة التي تتصرف كصديقة حميمة للعائلة. لكنها وجدت الامر صعباً. فروشيل انسانة جافة باردة ينقصها الكثير من العقل والصراحة والدفء. ولهذا ظل الحديث بينهما سطحياً يتناول مواضيع عامة.

وعاد الرجال بعد مغيب الشمس، فصار الجو اكثر مرحاً. دخل دارت الى غرفة الجلوس تحيط به هالة من الحيوية تميز عادة الرجال الذين يقضون معظم اوقاتهم في الهواء الطلق. عيناه الرماديتان تألقتا ببريق لافت تحت الاضواء الخافتة.

وتوجه دارت مباشرة الى روشيل التي احنت قامتها بدلال ورسمت على شفتيها القرمزي ابتسامة رائعة.

«دارلنغ! كم هو رائع ان اراك مرة ثانية».

«انت ضيفة خاصة جداً في كنغارا يا روشيل».

وابتسم ملاطفاً يلقي بيده بتكاسل على كتف كورلي التي لم ترَ في حركته الاخيرة اي شيء يبرر حمرة الخجل التي لونت وجه روشيل.

«ماذا كنت تفعلين هنا يا دارت. ابنة عمك كورلي، يا لها من طفلة خجولة ورقيقة».

واحمرت كورلي بخجل.

«طفلة..»

دخل ستيفن الغرفة وهز رأسه والتفت متسائلاً.

«من هي الطفلة الجميلة الرقيقة؟»

«انا يا ستيفن او على الأقل روشيل ترى ذلك».

رد كورلي جاء ساخراً، فالتفت ستيفن الى روشيل

«لا تزعجيها رأيك يا آنسة تيانت. كورلي تبدو اكثر كأميرة حالمة لا تراها الا في كتب الاساطير. طبعاً رأيي غير مهم فانا ايضاً مجرد صبي صغير مسكين».

ابتسمت روشيل برقة مصطنعة، فابتسم ستيفن لكورلي.

«كيف وجدت الآنسة تيانت الجنائية؟ عادت لتلقي شعاعاً من الدفء والسعادة في حياة الحزينة».

وردت روشيل وهي تحاول السيطرة على غضبها.

«شيء من هذا القبيل يا ستيفن».

وتدخل دارت ليرطب الاجواء المتوترة.

«كفوا جميعاً عن هذا المزاح».

ونهضت بيلا من مكانها.

«ساذهب لاتأكد من أن العشاء اصبح جاهزاً... ستيفن، اذهب واسأل مايك ما اذا كان يرغب في الانضمام الينا قل له ان روشيل هنا».

وخرجت بيلا من الغرفة وورائها ستيفن وسوزان، ووضعت روشيل بين شفتيها السيكارة التي قدمها اليها دارت، وامالت رأسها في اتجاهه ليشعلها لها.

«كنت اقول لكورلي اننا سنفعل كل ما في وسعنا لجعل اقامتها ممتعة بيننا لا نريدها ان تمل البقاء كالعادة».

نفث دارت سيكارته في حلقات رمادية تصاعدت في الهواء، والتفت الى كورلي مبتسماً.

«هل تعتقدين بانك ستشعرين بالملل هنا يا كورلي؟»

«في بعض المناسبات فقط، وارجو الا تطول».

ضحكت روشيل بضحكة مصطنعة

«يا لك من طفلة شقية! ما رأيك يا دارت؟»

«لا يمكن توقع ما ستفعله بعد دقائق.»

وكادت كرلي تصرخ غضباً. إلا أنها تمالكت أعصابها عندما التقت عيناها بعينيه الناعمتين.

«فلتسمح لي الكبار بالانصراف الآن. أود أن أستبدل ثيابي للعشاء.»

وصعدت كرلي الدرج راكضة إلى غرفتها. توقفت طويلاً أمام المرآة. تنظر إلى صورتها بعين ناقدة. كم تمنت لو كانت أكثر طولاً. لا تستطيع أن تنكر أن دارت وروشيل يليق كل منهما بالآخر فعلاً! وشعرت بغصة وهي تتخيلهما معاً. قذفت لسانها بحركة طفولية للوجه الصغير القلق الذي يتراءى لها في المرآة. ما بالها تعلق كل هذه الأهمية على شعور روشيل تجاهها! لا يمكنها أن تفرض عينيها على الجميع.. لكن روشيل تنظر إليها دائماً بسخرية وتعتبرها طفلة فعلاً.

وانتهت كرلي من ارتداء ثيابها. وارتدت فستاناً حريرياً برتقالي اللون. ما زال أمامها ساعة كاملة قبل العشاء. اختارت كتاباً وجلست تقرأ. واستغرقتها القصة فلم تشعر بمرور الوقت. حتى دقت ساعة البورسلين الصغيرة تشير إلى السابعة والنصف.

نزلت إلى غرفة الجلوس. فوجدت أن روشيل سبقتها إلى هناك. وما أن رأتها تدخل حتى علقت قائلة:

«تبدين أصغر من عمرك يا كرلي. واضح أنك نشأت محاطة بالعناية والحنان. وهذا ما يجعلك في هذه الأرض القاسية تذكري بأنك لم تعودي طفلة.»

«أعرف جيداً أنني لم أعد طفلة يا روشيل.»

«ويزعجك بعض الوقت.»

«بعض الوقت فقط.»

«أعرف أنك لا تنتمين إلى هذه الأرض.»

«لا أعرف لماذا تتصرفين معي بهذا الجفاف يا روشيل. لكنك مخطئة إذا ظننت أني في هذه الأرض. أتاجر بها وهي جزء مني.»

«حسناً. لا أعتقد بأني سأعيده أبداً يا كرلي. وإن كنت ستتظاهرين بعكس ذلك أمام دارت. فإنا سأفعل أي شيء للحصول عليه.

«فتاة... تفاجئني دائماً..»

ودخل ستيفن الغرفة فكفت كرلي عن الحديث.

«ما بكم! أشعر بالتوتر في الأجواء.»

«أعتقد أن الآنسة كيغ الصغيرة لا تحبني.»

«أعطها بعض الوقت. ألم تعلم كلنا أن نحبها.»

وكاد الحديث يتحول إلى مشادة حامية لولا دخول بيللا ودورانها ودارت ومايك وسوزان بيللا. بدت أنيقة جداً في ردائها الوردي. أما سوزان فكانت متألقة بشعرها المسرح. مايك ودارت ارتديا قمصانهما العادية بقميص حريري أبرز لون وجهيهما البرونزي.

وجلست كرلي تراقبهم جميعاً. قلقت روشيل عن كل تصرفاتها المثيرة لتبدي اللامبالاة رقة ولباقة. سألت مايك بيللا عن أحواله. وأفسحت مجالاً لبيللا لتجلس قربها على المقعد العريض. بدت وكأنها تعتقد فعلاً أنها جزء من العائلة.

ولاحظ ستيفن صمت كرلي فجلس قربها يخبرها بتفصيل ممتع عن الأحداث التي حصلت له ذلك اليوم. وضحكت له كرلي مشجعة. وملأ في حديث جانبي بعيداً عن الحوار العام الدائر في الغرفة. وقاطعها صوت دارت الذي علق عالياً. يحاول لفت انتباهها:

«لا أعتقد أنها سمعت ما قلته.»

وضحكت روشيل ضحكة مشبعة بالمعاني:

«طبعاً لا. في أي حال نستطيع أن نخبرها بعد العشاء.»

ولم تذكر «كولي» ما حدث بعد ذلك. نسيت كل شيء وهي ترى «دارت» ينظر إلى «كولي» بغضب. ترى ماذا قالت له عنها هذه الفتاة لا تجلب إلا المشاكل.

وقطع حبل أفكارها صوت «ستيفن» يحثها ضاحكاً:

«ما بالك هل أصبحت فتاة سرية لا تعرف معنى كلمة لا»

ولم تفهم «كولي» قصده فتابع قائلاً:

«في الدقائق الأخيرة أخذت يدي على أكثر اقتراحاتي سخافة.

«آسفة يا «ستيفن». لم أسمعك. يبدو أني كنت أحلم»

«لاحظت ذلك»

وجاء دور الحلوى فتناولت «كولي» شيئاً منها وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها كانت تشعر بنظرة «روشيل» القاسية والساخرة تستقر عليها بين وقت وآخر. ومن حسن الحظ أن «سيلا» وحدها كانت تدير دفة الحديث. لم يكن على «كولي» إلا إظهار اهتمام مهذب. وتشعب الحديث حتى تناول وسائل الترفيه المتوفرة للسياح في تلك المنطقة. اقترحت «روشيل» تنظيم أفراح لتمضية أجازة خاصة جداً.

«ما رأيكم بليلة نخيم فيها في العراء تحت النجوم، ونتحلق حول النار وسط أصوات الليل الناعمة»

وتكاسلت نظراتها على «دارت» وهي تتابع بغنج:

«وربما أنك معنا، فلن نخشى شيئاً»

تحمست «سوزان» للفكرة ووافق عليها «دارت». أما «كولي» فانزعجت من الاهتمام الواضح الذي أبداه ابن عمها لاقتراح «روشيل» حتى هو لم يستطع الصمود أمام إغراء فتاة كهذه. وخرجت «كولي» إلى الشرفة فور انتهاء العشاء فلحق بها «مايك».

«ما بك يا «كولي». أتمنى أن لا تكون «روشيل» قد تمكنت منك»

«هل بدا عليّ ذلك؟»

«ووجهك البريء ما زال صغيراً على إرواء الانتقاد»

«على أي حال، لكن «روشيل» الشام بهذه الرحلة لا بأس بها سأهتم بك وأحميك يا «كولي» الصغيرة»

«وهل تعتقد فعلاً أني بحاجة لمن يحميني»

وعندما آوت إلى غرفة النوم اقترحت «سوزان» الاستئثار بالحمام سابقة، فاستغلت «كولي» الفرصة لتهرب مجدداً إلى الشرفة. كانت تريد البقاء وحيدة تفكر.

الليل كان موحشاً، داكناً والسماء ملبدة بالغيوم. حاولت «كولي» أن تفكر في أمر رحيلها وبقائها، فاتجهت بأفكارها إلى «سورشا» فرسها الخاصة التي لم تعرف أي مثيل أساسها على الإطلاق. وهي الآن ملكها. تخصها وحدها.

وسمعت «كولي» وقع أقدام وراءها. فحاولت أن تختفي في الظلال الداكنة لكن «دارت» كان أسرع منها فأمسك بمعصمها بشدة وأخرجها إلى بقعة النور المتسللة عبر الباب المفتوح.

«ماذا تفعلين يا صغيرتي؟»

«كنت أفكر في «سورشا»»

«قولي الحقيقة يا «كولي». هل بدأ ذلك الشاب يعرف معنى الحب»

واحمرت «كولي» بحمرة الخجل تلون وجنتيها

«أو يا «دارت» كيف استطعت أن تقول ذلك. أنا لم أعرف معنى الحب بعد»

«حسناً أبتعدي عن الأفكار الرومانطيقية حتى أسمح لك أنا بها. أنا الوصي عليك، وسأهتم بك حتى تنضجي بالنضج الكافي للاهتمام بأمورك الخاصة»

وابتعدت عنه برغبة الكرامة

«إنك لا تطاق. يا لك من متسلط مستبد يا «دارت». سأفعل ما تحب لي. حسناً سترى! كنت دائماً طفلة عنيدة. لكنك سترى ما سنفعله هذه المرة»

٥ ـ فرس في الافق!

أشرقت الشمس بكل ألقها لتغرق الأرض بأولى فتات الموسم الخلّاق لغمامات سطحه في قبة السماء، ورمت بريقها الذهبي على العشب الطري الذي استيقظ للحياة عند أولى زخات أمطار تشرين/أكتوبر.

القطعان انتشرت بتكاسل على التلال تلتهم الطعام في هدوء تحت اشراف العمال الذين استفاقوا مع الفجر ليحثوا بها.

وفي الأفق، ركضت فرس بنية اللون تسابق الريح حتى وهي تلمع صدرها لروعة الشروق. واستراح «دارت» على صهوة جواده يراقبها عن بعد. لابد أنها «كوني»! كم من الأميال يا ترى قطعت هذا الصباح؟ يجب أن يمنعها من الابتعاد عن المنزل أكثر من اثني عشر ميلاً، ما لم يكن معها رفيق يصحبها. وابتسم وهو يتخيل رد فعلها على هذا القرار الجديد.

يالها من فارسة ماهرة. كانت تشكل والفرس وحدة منسجمة تمايل على الايقاع ذاته. شعرها كان يتطاير في الهواء حراً بعدما سقطت قبعتها عن رأسها، لتستقر على ظهرها عالقة بخيط رفيع حول العنق.

تستطيع هذه الفتاة رغم رقتها أن تتعامل مع معظم الخيول في اسطبله، طبعاً ما عدا جواده الخاص الذي يحتاج الى قوة رجل للسيطرة عليه. ها هي تقترب منه الآن. انه يرى ملامحها تتألق فرحاً بروعة الصباح، وحمرة خفيفة تركتها الشمس على وجنتيها لربما لم تلحظ، وعرفته عن بعد.

«دارت انتظرني»

كم مرة سمع منها هذه العبارة حين كانت طفلة. انفرج فمه عن ابتسامة

ساخرة فور وقوفها الى جانبه.

«أرى أني لم أمتنع بعد من [illegible] ساعات طويلة في حقيقة الفروسية. أنت فارسة أصيلة يا آنسة «كوني»».

«فرس من الأصايل».

كانت فخورة بها أنحنت ترتب بحنان على عنقها الجميل الصافي

«قول لي يا آنسة «كوني» ما هي المسافة التي قطعتيها اليوم؟»

وضحكت عيناها وهي تشد بلجام «سوريتا» تشعر بها حول «دارت».

«أرفض الاجابة على أي سؤال قبل الساعة العاشرة صباحاً»

وأضافت مداعبة:

«لا تقل لي انك ستصدر قراراً جديداً يا عزيزي «دارت» يحدد المسافة المسموح لي بأن اجتازها كل يوم».

وقطب «دارت» حاجبيه، وقبل أن يجيب بكلمة واحدة انطلقت «كوني» بفرسها، وعلى بعد أمتار قليلة انحنت برشاقة لتقطف وردة قبل أن تنتصب باعتداد على صهوة فرسها وعادت الى «دارت» والوردة في شعرها، رمزاً للرغبة للانتصار.

بعد «دارت» كالشلال فوق حصانه، ولم يخف وجهه الصلب ما يشعر به. قادت «كوني» فرسها قربه وهي تحس بالحياة تضج في عروقها ولمحة قلق. «دارت» كالشرارة أوقفها عن صهوتها بلمحة خاطفة، ويضعها على السرج أمامه.

«ما زال أمامك الكثير لتتعلميه»

ونظرت اليه معجبة بمهارته وسرعته. كانت الشمس تتلاعب فوق وجهها الفتان، وبدت عيناها الخضراوان أكثر اخضراراً. وأجابته بمرح طفولي:

«أليس أمامنا جميعاً الكثير بعد لنتعلمه؟»

والتقت نظراتهما في لحظة فائتة. «دارت» وضع القبعة على رأسها قائلاً:

«هذه القبعة صنعت لترتديها»

وبطريقة مقبولة ليدل «سوريتا» عائدة الى المنزل بدون فارسها التي [illegible]

اسرع على جواد «دارت»

روشيل وسوزان كانتا تتحدثان في النزهة عندما وصلا الى البيت الكبير.
ترجل «دارت» أولاً ورفع ذراعيه ليساعد «كولي» لكنها كانت قد سبقته بالقفز
عن صهوة الجواد بلا مساعدة.

وسلم «دارت» قياد الجواد الى «بن» الذي يظهر دائماً في الوقت المناسب،
وكأنه يشعر بحدسه ان «دارت» في حاجة اليه. وابتسمت «كولي» للعجوز
وهي تسأله:

«هل عادت «سوزانا» الى المنزل؟»

«نعم يا آنستي. هي في الاسطبل الآن. نزعت عنها سرجها ونقلتها من الفناء
الداخلي. انها ترى امسية وانت تعرفين كيف تتصرفين معها».

وأحنت «روشيل» رأسها فوق السور الحديدي:

«استغفروا بالخير. أرى عصفوراً واحداً فقط!»

فأجابها «دارت» مبتسماً:

«كنا نلعب بعض الألعاب القروية. من أعد لي طعام الفطور؟ انت يا
روشيل؟ صباح الخير يا «سوزان». هيا جميعاً الى غرفة الطعام».

كان سيقودهم الى المائدة. اما «بيلا» فكانت تقرص دائماً، كسيدة
كانت على تناول الفطور في فراشها. لاحظت «كولي» صحون متنوعة من
الطعام: بالبيض المقلي، والشرائح المقلية، واللحم. فضحكت متعجبة:

«يا الهي هل سنأكل كل هذا؟»

«نعم. معدتي ليست كمعدتك مثل العصفور».

وابتسم وهو يبلع قطعتين كبيرتين من الخبز محشوتين بالزبدة، ونظرت
سوزان الى «كولي» وهي تتناول طعامها.

«كم أتمنى لو استطيع ان آكل طعاماً غذائياً مثلك لأحافظ على رشاقتي».

وضحكت «كولي» قائلة:

«ولكني لا اتبع اي نظام غذائي. انا من الناس الذين يحرقون بسرعة الوحدات
الحرارية الزائدة».

«يا لك من محظوظة».

وقاطعهما «دارت»:

«لقد وافقت الفتيات على الفكرة. سنذهب غداً الى منطقة «كوكا - يارا - يونج»
وسنخيم ليلاً في العراء. اعتقد انكن ستستمتعن بهذه الرحلة».

وكانت «روشيل» أول من وافق على الفكرة:

«رائع يا «دارت». طبعاً ستأتين معنا يا «سوزان»؟»

«طبعاً لن يستطيع احد ان يبقيني في المنزل».

ولم تتمالك نفسها من الالتفات مبتسمة الى «كولي» التي بدأ سحرها العفوي
يتسلل الى اعماقها.

«ستستمتع بوقتك. أليس كذلك يا «كولي»؟»

«نعم. الصور الآن تملأ المخيم بحبالها البرتقالية الزاهية، واطراف السكاكين
المشتعلة، والوجوه البرونزية المألوفة. وأرى القمر يتأرجح في السماء ليلقي
بخيوطه الفضية على الخيول الساكنة في الظلمة، واسمع اصوات الحيوانات
الليلية تنطلق من الزوايا السرية والأرض...»

«يا لك من انسانة رومنطيقية».

كانت هذه «روشيل» تقطع بهدوء الحلم الذي كانت تنسجه «كولي» بصمت.
فالتقط «دارت» آخر الخيط وتابع نسج الفكرة دون تعمد منه: «ما اختلف على
الحلم بعداً جديداً».

«والأرض تعيش بآلاف عطر وعطر. انها ارض الاساطير، والاحلام، والاسرار.
التراب يضج بقصص الماضي، والرموز الدينية التي يؤمن بها السكان
الأصليون».

ولم تترك عينا «روشيل» وجه «دارت» وهو يتحدث بحلم عن الارض التي
يعشق.

«وصفك رائع حقاً يا «دارت». امضيت في هذه البلاد اربع سنوات وما زلت لا
أعرف عنها شيئاً».

أرادت «كولي» في تلك اللحظة ان تقول «لروشيل» ان السكان الاصليين لا
•

يكشفون أسرارهم وتقاليدهم إلا للذين يبرهنون عن جدارة بالثقة، وعن احترام لتراثهم. وإن «روشيل» بتصرفاتها الحمقاء لم تفعل شيئاً لتقترب منهم لكنها لم تقل شيئاً بل تابعت الحديث حيث توقف «دارت».

ـ إنها قصص السكان الأصليين هي جذور قبيلتي. هل تذكر العجوز «سولا» يا «دارت». كان يقول إن الذي يحمي عقله هو الإنسان الصالح.

ـ نعم، أذكر يا «كولي». لنحلم قصة كبيرة في حياتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم»

وشعرت «روشيل» أنها بعيدة جداً عن الحديث فتدخلت لتقطع الصمت:

ـ ستخبرني لاحقاً عن كل هذه القصص المسلية، أليس كذلك يا «دارت»؟

وابتسمت له بدلال.

ـ طبعاً يا «روشيل». ما رأيك بالرقص؟

وانشرح وجه «روشيل» فقالت:

ـ حسناً، إلى هذا المساء.

ـ سأذهب إلى المطار الآن. لو خطر لك أن تلحقي بي فسأكون قرب النهر.

والتفت إلى «كولي» ليضيف:

ـ ولا تنسي وضع لمستك. أنا لا أنتظر إلى تذكيرك «روشيل» أو «سوزان» بذلك.

وفور انصراف «دارت»، اعتذرت «روشيل» وخرجت لتستلقي تحت أشعة الشمس.

ـ تعالي معي يا «سوزان».

ـ سألحق بك بعد دقائق. علي أولاً تنظيف الطاولة.

تعرضت «كولي» ضاحكة:

ـ اذهبي يا «سوزان». سأقوم عنك بالعمل»

ـ شكراً «روشيل». وأنا لدينا الكثير بعد لنتحدث عنه»

ورمت منديلها على الطاولة لتلحق بصديقتها. وانصرفت «كولي» إلى العمل وهي شاردة الذهن فلم تسمع السيدة «إيفانز» تدخل الغرفة.

ـ صباح الخير يا آنسة «كولي». شكراً لمساعدتك.

ـ هل تسمحين لي بتنظيف الأواني بعد الانتهاء من غسلها؟

ـ أتريدين ذلك حقاً يا «كولي»؟

ـ ولم لا؟ أعتقد أن لديك الكثير من الأعمال تريدين إنجازها.

ـ لا أنكر ذلك. لكن... حسناً. تعالي معي إلى المطبخ. لن أضطر على الأقل إلى لملمة بقايا الأواني المتكسرة بعد انتهائك من تنظيفها.

وضحكت «كولي» وهي تلحق بها. وبعد فترة دخلت «ميني» الطفلة الصغيرة. كان لها أطول ريش رأته «كولي». وابتسمت «ميني» بخجل فقامت السيدة «إيفانز» بالتعارف.

ـ «ميني»... هذه «كولي»، ابنة عم السيد «دارت». هيا يا صغيرتي، خذي هذه السلة واذهبي إلى الحديقة. اختاري لنا أجمل الورود قبل أن تذبلها حرارة الشمس ولا تتأخري كعادتك.

ـ وفور عودتك يا «ميني» سأقوم بترتيب الزهور في الآنية الملونة.

وابتسمت «ميني» بثقة وهي تحيي «كولي» وخرجت تتمايل كعشبة راقصة لتعود بعد قليل بمزيج رائع من البنفسج والورد. وعندما بدأت «كولي» تنسق الزهور في كل أرجاء غرفة الجلوس، وقفت «ميني» تراقبها بصمت لدقائق وهي تتأرجح على قدم واحدة.

ـ ما رأيك يا «ميني» هل أعجبك تنسيق الزهور؟

ـ لم أر أجمل منه.

ـ وأنا متأكدة أنك تستطيعين القيام بالعمل ذاته بل وبطريقة أفضل.

ـ أعتقد أني سأكون أفضل في هذا العمل من تنشيف الصحون التي لا أعرف كيف تنسحب من بين أصابعي بدون أن أتمكن من التقاطها.

وضحكت الفتاتان، واعتذرت «ميني» من «كولي» فور سماعها وقع قدمي «بيلا».

ـ علي أن أذهب الآن. السيدة الكبيرة أتت.

واختفت فور دخول «بيلا» الغرفة.

ـ صباح الخير «كولي». ما أجمل هذه الزهور. تنسيقها فعلاً بكثير من الفن والحس.

أين «سوزان» و«روشيل»؟

«في الشرفة يا عمتي».

«ستحتاجين كالعادة الى رعيها. ما رأيك يا عزيزتي في تناول الشاي معي. السيدة "ايفانز" تحضره لي كل صباح في غرفة الجلوس الخاصة بي. تعالي معي».

وسبقتها الى الجناح الغربي من المنزل. وعندما دخلت "كولين" غرفة الجلوس الخاصة بـ "بيلا" وقفت تتأملها برهة لأنها الغرفة الوحيدة في المنزل التي تحمل طابعها الخاص. الألوان دافئة تتدرج بين درجات البرتقالي والذهبي. الرفوف كانت تحمل عدداً كبيراً من الكتب، وازدانت الجدران بلوحات تمثل أطلالاً أثرية عندما أشرقت عليها شمس المغيب ظلالاً قرمزية. وأغلقت "بيلا" الستائر.

«سيكون هذا النهار شديد الحرارة».

«أحب الحر يا عمتي. يجعلني أشعر بالحيوية».

«كم تشبهين "دارت" هو دائماً يقول ذلك. لكن انتبهي يا عزيزتي. لا تتعرضي كثيراً لأشعة الشمس، انها مؤذية».

ودخلت السيدة "ايفانز" بعد أن نقرت على الباب بطريقة خفيفة ورأت الآنسة "كولين" تدخل معها فأضافت فنجاناً آخر.

«شكراً لك».

وتركت السيدة "ايفانز" الصينية الحافلة بأنواع الحلوى وخرجت بعدما اغلقت وراءها الباب بهدوء.

جلست "بيلا" وراء المكتب الصغير، لتصب الشاي من الابريق الفضي بشكل يدل على خبرة طويلة. وراء الأواني الفضية لم يعد لديها شيء من المرأة الزارعة، بل بدت على طبيعتها سيدة ارستقراطية جاء بها العم "جيرمي" من المدينة، وانتزعها من محيطها الطبيعي، لتهتم بشؤون "كنغا".

«هل تحبين الحليب مع الشاي يا "كولين"؟»

«لا شكراً يا عمتي».

ودخلت "ميلي" تحمل وعاء السكر. أرادت ان تؤدي تحية مهذبة فانحنت باحترام، لكن محاولتها انتهت بأن علق ابهام قدمها بالسجادة فتعثرت ووقعت في حضن "بيلا". لكنها لم تكسر شيئاً هذه المرة.

«لم أكسر شيئاً هذه المرة يا سيدتي».

وحافظت "بيلا" على برودة أعصابها وهي تقول:

«حسناً يا "ميلي" اخرجي الآن».

وحاولت "كولين" السيطرة على ضحكتها الكئيبة وهي ترى استياء "بيلا". انها تحب "ميلي" رغم كل الكوارث الصغيرة التي تحدث فور دخولها المنزل. وتناولت "بيلا" الموضوع

«"كولين"، قلت لي أمس انك ترغبين مساعدتي في المراسلات. لا أريد أن أستعجلك. لكني سأكون سعيدة جداً لو وفيت بوعدك. لا تعرفين كم أكره هذا العمل».

«أنا سعيدة لأني أستطيع مساعدتك يا عمتي. اني أكره البقاء بدون عمل».

وارتشفت "بيلا" قليلاً قبل أن تتابع قائلة:

«هل تساعدينني اليوم؟»

«ربما لا الآن».

ومرّ الصباح في انجاز المراسلات.

عادت "راشيل" و"سوزان" من نزهة بعد الظهر وهما تتألقان نشاطاً وحيوية. كانت "كولين" تكتب في الشرفة تبحث عن "بوكا" تريد أن يسمع البرنامج الاذاعي الذي يبثه الراديو المحلي يومياً لأطفال السكان الأصليين.

ونظرت اليها "سوزان" عابسة

«ماذا حدث لك؟ أين كنت؟»

«كنت أساعد العمة "بيلا" على انجاز مراسلاتها».

أجابتها "راشيل" بحدة.

«وما الذي يجعلك تعتقدين أننا لم نستمتع بنزهتنا؟»

استغربت "سوزان" رد فعل صديقتها فعقدت حاجبيها استياء. كم كانت تشبه والدتها في تلك اللحظة.

«دارت سأل عنك يا "كولين". قالت له "راشيل" انك رفضت مرافقتنا. لكن طبعاً اذا كنت تساعدين والدتي...»

ترددت، فأقلقها كولي من اضطرابها

«لا تهتمي للأمر سأفرغ بعد قليل»

وابتسمت لها سوزان تهويناً، فدخلت روشيل لتقطع الحديث

«هل ستمضين النهار كله هنا، اشعر بالعطش سوزان. اريد شراباً بارداً واكثري فيه الثلج»

«حسناً يا روشيل اسبقيني الى غرفة الجلوس. هل تريدين شراباً بارداً يا كولي؟»

«لا، شكراً. احاول العثور على بوكا»

«مهمتك صعبة ليس من السهل ايجاده»

وانتظرت روشيل ان تدخل سوزان اولاً الى المنزل لتلحق بها لكنها لم ترد ان تسمع صديقتها عبارتها الاخيرة.

«كولي تلعبين دور الساحرة الصغيرة التي كنتها»

لم تجبها كولي وكأنها لم تسمعها وبعد خمس عشرة دقيقة رأت كولي بوكا قرب الاسطبل. ألقت كتابها وانطلقت كالسهم تمسك به قبل ان يختفي. فاصطدمت بجارث الذي كان يصعد الدرج بتمهل.

«يا إلهي. عليّ منذ اليوم ان اربط جرساً حول رقبتي يقرع رنينه بقدومي. فلا اتعرض لحادث اصطدام مرة اخرى. هل لي ان اسألك الى اين انت ذاهبة؟»

«الى بوكا. هناك درس مهم على الدباغ اريد ان يسمعه»

«لا تستعجلي الامور يا صغيرتي. بوكا سيعيش طوال حياته في هذه المزرعة بين ابناء جنسه وفي محيطه الطبيعي. هؤلاء الناس انا مسؤول عنهم»

«لكنه يحتاج الى الثقافة يا جارث»

«طبعاً وسيحصل عليها لكنها ستكون ثقافة اجداده وابناء عرقه. بوكا خرج الى الاحراش منذ كان طفلاً في الثالثة من عمره. وتعلم من الطبيعة اسرارها وخصائصها والسكان الاصليون يعتزون جداً بحضارتهم. اسمعني جيداً يا كولي. لي خبرة طويلة في هذا المجال. تسعة من عشرة لا يستوعبون ثقافة الرجل الابيض، ولا يستفيدون منها. والسبب ليس بساطتهم او انه ينقصهم

الذكاء، بل لانهم يرون معالمهم الحقيقية في الانصهار في الطبيعة»

«ماذا تريدني ان افعل يا جارث؟»

«كما تريدين انت يا صغيرتي. لكن لا تنسي ان بوكا ليس بطفل ابيض وان طموحاته واهدافه كلها تنبع من واقع بيئته. شجعيه على القراءة وساعديه ما تستطيعين لكن لا تحاولي ابداً فرض وجهة نظرك عليه»

ووضع يده على كتفها بحنان

«انت طفلة طيبة يا كولي... اخبريني الآن لماذا رفضت الخروج من المنزل اليوم؟»

«كنت اساعد العمة بيلا في انهاء بعض الرسائل الشخصية»

«حسناً تعالي معي الآن. لكن لتمضي اولاً لتغيري فستانك هذا»

«لماذا؟ الا يعجبك؟»

«بلى، لكني لا أعرف متى سيحصل [illegible]»

وبرقت عينا كولي بضحكة [illegible]

«حسناً سأعود بعد دقيقة واحدة»

«لن انتظرك أكثر من ذلك»

وعادت كولي بعد دقائق ثلاث فقط وهي ترتدي سروالاً مريحاً وقميصاً فاتح اللون، وعلى عنقها ربطت منديلاً حريرياً بلون شعرها.

وتفحصها جارث طويلاً.

«ما بك تنظر إليّ هكذا يا جارث هل تتفحصني؟»

«أنا اتفحص كل النساء عادة لكن عندما يتعلق الأمر بك عليّ ان انتبه لنفسي»

«لا أفهم قصدك»

«متى ستصبحين قادرة على الفهم يا صغيرتي؟»

وفي عينيه الرماديتين تلاعبت ابتسامة ساخرة. ورفعت كولي حاجبيها بلا مبالاة مصطنعة

«ربما كنت افهم اكثر مما تظن فعلاً»

وضحك وهو يتأبط ذراعها ليمشي معها الى الاسطبل.

«لكن من هذه الادعاءات يا صغيرتي. ما زلت طفلة لا تعرف شيئاً بعد عن

الهواء.

رآها بن عن بعد تنحسر لها جوانبها، وكعادتها لم تنتظر «كرلي» أن يساعدها «دارت». فأسرعت تمتطي صهوة فرسها وانطلقا معاً يلفهما الصمت ودقائق طويلة. كانت «كرلي» تسترق بين حين وآخر نظرة خاطفة الى وجه «دارت» الأسمر الذي كان يعبر بكل ملامحه عن سعادة الرجل الفخور بملكيته هذه أرضه، ويفخر بمزروعه، وهذا لطبعه. بلاده لغة واسعة كالبحر ودفئها النجدي ماله. كانت أولاً وأخيراً علماً للرجال يحبونها ويسايرونها لكن «كرلي» كانت تحبها كما يحبها «دارت». «كينغ» تجري في عروقها ويعبها لاصرار على التحدي وحب الحياة... أن «كينغ» كان يتمتع من عشبها ويظهر في حيوية حركاتها وتخصيبها انها فعلاً ابنة عم «دارت». ثم كانت «دونيل» [illegible] انها تنتمي الى هذه الأرض وجذورها مغروسة عميقاً فيها. ألم يكن العم «سيروس» يدعوها بابنة الشمس؟

ولاحظ «دارت» ابتسامتها الساهمة.

«بماذا تفكرين؟»

ابتسمت له وهي تمسح شفتيها بيد واحدة

«كنت أتذكر الاسم الذي أطلقه عليّ العم سيروس: ابنة الشمس»

ورفعت وجهها لتستمتع بأشعة الشمس تتسلل بين خصلات شعرها والمرح

«دارت» لاعادة القبعة الى مكانها.

«انت مزعج حقاً يا «دارت»! هل تظن انني سأموت نتيجة التعرض قليلاً لأشعة الشمس؟»

وقال «دارت» تاركاً صوتها بغير تجيب:

«انت مزعجة حقاً يا «كرلي»! كنت أعتقد انك تعرفين اكثر من غيرك أن التعرض لحرارة الشمس في هذه المنطقة مؤذ للغاية. واستغرب فعلاً انك لم تدركي بعد أهمية ملاحظتي. في أي حال انا السيد هنا وعليك الطاعة أو أمري»

حدية كلماته ناقضها البريق المرح في عينيه اللتين استقرتا على بشرتها.

«انت فتاة متطرفة فعلاً. لانك تتكلمين بشرة صافية كهذه. حرارات الشمس مفرطات عادة للاصابة بسرطان الجلد خاصة اللواتي يخرجن في حر الظهيرة

«ربما كنت على حق.»

وشدت قليلاً على لجام «سورشا» التي أسرعت الخطى تلبية لرغبة فارستها. كان سيراً رهاناً كما توقعت «بيلا».

تابعا «دارت» السير قليلاً. لكنها اصرت على المشي قدماً وهي تشعر بنشوة تملكها بعنصر حيوية في عروقها. وأمام نضارة الطبيعة أحست عدم الثقة بالنفس. وكأنها حيوان بري يبحث عن ملجأ يحميها كشف مكان الصيادين.

وتركها «دارت» تنطلق وحيدة حتى اقتربا من القطيع، فلحق بها في لحظة كانت تتصرف كطفلة عنيدة وصعبة المراس كالعادة.

وشعرت «كرلي» وكأن قلبها يقفز من مكانه عندما سمعت صوت «دارت». وانتظرت ان يبدأ حديثه قبل أن تلتفت الى ابن عمها وعلى شفتيها ابتسامة المنتصر.

«اعتقد انك تصرفت فعلاً كطفلة. كن صبوراً معي يا «دارت».»

ولم تترك عيناه وجهها وكأنه أراد انتقاد ملامحها محتجة عليها. وقامت «سورشا» وربتت «كرلي» على ظهرها بلطف.

وأطل عليهما «مايك» من بعيد فلوح له «دارت».

«كرلي، انتظري «مايك». أريد ان أتحدث الى «مايك».»

وابتعد عنها مسرعاً باتجاه القطيع. وبعد دقائق كان «مايك» يقف امامها مبتسماً.

«صباح الخير، آنسة «كرلي». تبدين دائماً أكثر جمالاً. كيف تفعلين ذلك؟»

استراحت «كرلي» على صهوة فرسها وهي تقاوم رغبة جارفة في خلع قبعتها. «انها طبيعة الانثى يا «مايك».»

وانتقل «مايك» بنظره من الفتاة الرشيقة الى الفرس البنية التي احنت رأسها لتداعب العشب الطري.

«يا لها من حيوان جميل! هذا ينبع من اصالتها. لا اعتقد اني رأيت مثل لونها من قبل. انظري الى الطريقة التي تأكل بها العشب. تبدو كسيدة ارستقراطية».

ورفعت «سورشا» رأسها باعتداد وحدقت في الرجل الواقف امامها، وكأنها

تهم وتقدر اعجابه بها.

وضرب «مايك» على رأسه فجأة، وكأنه تذكر شيئاً مهماً.

«يا إلهي، كيف نسيت؟ سمعت منذ حين قصة من احد السكان الاصليين القاطنين في السهل» على أن اخبر «دارت» فوراً بما قال. لا بد من أن اعلمه بسرعة»

«وما هو يا «دارت»؟ أنت البناء»

قالت «كولي» مستغربة القلق الواضح في صوته. وبما أن توقف «دارت» قريبا، حين قال:

«دارت، عجوز اخبرني منذ قليل بانه رأى رجلاً وامرأة يوقفان سيارتهما قرب مركز الحرس القديم»

وعقد «دارت» حاجبيه باهتمام قلق.

«ومتى كان ذلك؟»

«مراقبا عند الشروق، لكنه لم يستطع الوصول الى الزريبة لابلاغنا الا منذ دقائق قليلة. طلبت اليه أن ينتظرني»

«حسناً، أين هو؟»

وقاده «مايك» الى جذع شجرة يابسة، استلقى تحتها رجل عجوز حفرت السنوات اخاديد عميقة على خديه. انحنى «دارت» على العجوز يحدثه في حوار باللغة المحلية. ثم نهض بعده «دارت» مسرعاً.

«آمل أن نصل اليهما في الوقت المناسب. العجوز اخبرني بانه رأى الرجل يغادر سيارته، اما المرأة فيبدو انها لم تتحرك من مكانها. ان يترك الرجل سيارته ليتجول على الاقدام في حر الظهيرة الداخلية، ودون ان يعرف شيئاً عن طبيعة هذه الارض، جنون قد ينتهي بمأساة. علينا ان نلحق بهما قبل فوات الأوان. من حسن الحظ ان الحر لم يشتد بعد، وانا اعرف مكانهما بالتحديد»

«سآتي معك»

صرخ «مايك» و«كولي» في آن واحد فاستمر «دارت» تعليماته بسرعة

«مايك، أحضر سيارة الجيب، سنعود فوراً الى المنزل الكبير. هيا يا «كولي»»

ولم ينطق احدهم بكلمة واحدة، والسيارة تشق طريقها وسط التلال الرملية

وعند وصولهم الى المنزل الكبير كانت «بيللا» تنتظرهم في الشرفة. امسكت بحاجتها السادسة التي تكتسبها كل النساء اللواتي يعشن طويلاً في المناطق النائية. ان امراً مهما حدث.

«ماذا حدث يا «دارت»؟»

«رجل وامرأة اوقفا سيارتهما قرب مركز الحرس القديم. سألحق بهما»

«من الأفضل ان ارافقك يا «دارت»»

وأسرعت عائدة الى المنزل. لكن «دارت» ناداها قائلاً:

«ستأتي «كولي» معي يا «بيللا». الأفضل ان تبقي هنا للاستعداد لاستقبالهم، انت تعرفين جيداً ما يحتاجه المرء في مثل هذه الحالة»

«حسناً. تعالي معي يا «كولي»، لأعطيك حقيبة الاسعافات الأولية»

والتفتت الى ابنتها «سوزان» التي خرجت الى الشرفة برفقة «راسل»

«سوزان، احضري وعاء من الماء، ولتكفي اقلاقك»

وقفت «راسل» بدون حراك، وهي تركز كل اهتمامها على «دارت»

«هل أنت يا «دارت»، هل لديك مؤونة كافية من مياه الشرب؟»

«نعم، وضعتها في السيارة»

«كيف يضع الناس انفسهم في مواقف كهذه؟ وكأن لا تفعل الله الا الطيش مسافرين متهورين لا يقدرون عاقبة استخفافهم بالتحذيرات التي لا بد ان تكون قد وجهت اليهما حول خطر التجول في هذه المنطقة بدون دليل»

«الحمد لله اننا لم ندخل بعد موسم الصيف»

اكتفى «دارت» بهذا الرد، والتفت ليساعد «مايك» في اعداد سيارة الجيب.

وعادت «كولي» بعد قليل تحمل حقيبة الاسعافات الأولية، وورائها «بيللا» ترد بصوت عال:

«الحمد لله ان الحر لم يشتد بعد»

جلس «دارت» امام مقود الجيب والى جانبه «مايك» و«كولي». وما ان اثار محرك السيارة حتى ساد الصمت. لم يكن احد منهم يعرف ماذا ينتظرهم في نهاية الرحلة. ففي المساحات الرملية الشاسعة والخالية من الاشجار يسهل على المرء ان يضيع وهو يلاحق سراباً يتلألأ عن بعد، وسابقاً وهبة بتحامل الثالثة على

مطلقة ليصل اليها تجرب منه حتى يسقط فيها فتلاقى تماماً.

كان «دارت» يحدق في الطريق أمامه ويركز على قيادة السيارة، بدون أن يفضح وجهه ما يجول في داخله. وتزودت السيارة فوق الأرض الرملية الناعمة، وكادت الإطارات تغرق فيها، فعمد «دارت» فوراً إلى زيادة السرعة، كي لا تدور الدواليب في مكانها وتبقى السيارة طريقها. التوقف في منطقة كهذه يعني الموت البطيء.

وبل بعد اجتياز قليلة رأت «كرلي» حيوان الكنغارو مستلقياً بتكاسل في ظل بعض النباتات الصحراوية. رفع رأسه بحذرية ليحدق في هؤلاء المتطفلين المزعجين الذين قطعوا عليه قيلولته. فضحك ركاب السيارة فخفت حدة التوتر داخلها.

وكانت الشمس تركض أمامهم لتحول السماء إلى مزيج من النحاس الأصفر. ولم تتمالك «كرلي» نفسها من التفكير في المرأة التائهة في الصحراء. هل سيتمكنون من العثور عليها في الوقت المناسب؟ وسرت في جسمها قشعريرة خوف. أحس بها «دارت» فحول نظره لحظة عن الطريق ليطمئنها:

«كل شيء سيكون على ما يرام يا «كرلي». الرجل العجوز اجتاز مسافة كبيرة ليخبرنا بما حدث. لا تخافي سنجدها».

وتمكنوا فعلاً من العثور عليها بعد ساعة واحدة. كان الرجل في أوائل العشرينات، ويحنو هانياً على وجهه، مرهقاً ومقلقاً. أما زوجته الشابة فكانت مستلقية على المقعد الخلفي لسيارتها الصغيرة، وآثار الدموع ما زالت واضحة في الأخاديد القريبة التي حفرتها على وجهها المغطى بالتراب.

لم ينبس أحد بكلمة واحدة، لم يكن هناك ما يقولونه. نقل «دارت» قطعة من القماش، وأخذ ينظف بها وجه ورقبة الرجل المستسلم له وكأنه طفل في الخامسة من عمره. أما «كرلي» فانصرفت للاعتناء بالسيدة الشابة، التي أخذت تبكي بمرارة وهي تهز رأسها بعصبية يميناً ويساراً. وعندما لم تنفع محاولات «كرلي» في تهدئتها قطع «دارت» الصمت ليقول بحزم:

«كفى، أنت بأمان الآن. حافظي على ما تبقى لك من قوة».

وأخذ قطعة القماش المبللة من «كرلي» ليكمل المهمة بصبر. حدقت المرأة

النعمة في وجهه الأسمر الجذاب وفي عينيها تساؤل صامت. ابتسم لها، فتناولت السلة البيضاء لتضفي مزيداً من الطمأنينة على ملامحه البرونزية.

هل تشعرين الآن أحسن الآن؟

لم تترك عينا المرأة وجه «دارت» وهي تهز رأسها بالإيجاب صمتاً.

وتناول كوب الشاي الذي أحضرته «كرلي» ليقربه بلطف من شفتي المرأة بعد أن أسند رأسها على ذراعه.

اشربي هذا الآن، وعندما تشعرين أنك قادرة على التحرك، سنعود بك وبزوجك إلى الزريبة.

واستقرت نظرة خاطفة إلى خاتم الزواج الذهبي في إصبعها، الذي تزينه ماسة كبيرة.

أنا أدعى «دارتلاند كيتج». أنا من «كنغارو هيد» وهذه ابنة عمي «كرلي». وهذا «مايك» مرافقي في رئيس العمال.

وظل الزوجان ينظران من واحد إلى الآخر وصاحت «كرلي» للإعجاب بالمرأة: سأعتني أنا بها الآن يا «دارت».

وبقي «دارت» وهو يهز رأسه إيجاباً وعاد الصمت يخيم على المكان. الوقت ليس مناسباً الآن للأسئلة والتقصي، سيتركونها حتى يتمالك الزوجان أنفسهما.

كان «مايك» يتفحص السيارة الصغيرة وعلى وجهه شيء من عدم التصديق والشفقة، فاقترب منه «دارت».

لن تصدق هذا يا «دارت». السيارة فارغة من الماء والزيت، ولم يجلبا معهما مؤونة كافية من الوقود ومن مياه الشرب.

هل هناك ما يكفي من الوقود للعودة بها إلى المنزل؟

نعم، لكني سأحاول أولاً تحرير الإطارات العالقة في الرمل.

حسناً. سنتحرك فور انتهائك. الحمد لله أن سوءاً لم يحصل لهما. قليل من الخوف فقط.

وعندما وصلوا أخيراً إلى المنزل، كانت «بيلا» بانتظارهم، هي أيضاً لم توجه سؤالاً واحداً بل قادت الزوجين إلى غرفة الضيوف المعدة لاستقبالهما. وتجسم

السكون على المنزل الكبير.

قدم العشاء في ساعة متأخرة من المساء، وروى الزوجان للمرة الأولى قصتهما، وكيف وصلا إلى هذه المنطقة النائية. كانا من نيوزيلندا. قصدا أستراليا شهوراً طويلة ليمسكا أخيراً من قضاء شهر العسل في قلب أستراليا الميت الذي يختلف تماماً عن جزيرتهما الصغيرة بخضرتها وتلالها.

تجربتهما المرعبة أصبحت الآن مجرد ذكرى. فالعناية الساهرة التي أحيطا بها منذ قدومهما إلى المنزل الكبير، أنستهما مرارة الساعات الطويلة التي ذاقا فيها طعم الوحدة والخوف والضياع.

كانت السيدة هاريسون تتأمل بحيوية وهي تروي تفاصيل الرحلة المأساوية حتى اللحظة التي جفت فيها الحياة تماماً من محرك السيارة. كانت السيدة الشابة تنظر إلى الأمر كله على أنه مغامرة مثيرة ستحكيها لاحقاً لصديقاتها. أستراليا العالم الشاسع الجديد … حتى كاد يقضي عليهما.

«كانت التجربة فريدة».

وبدت السيدة هاريسون وكأنها تتوجه إلى دارت وحده. أما زوجها فكان ينظر إليها بحنان، وهو سعيد لأنها استردت حيويتها ومرحها. كان من الواضح أن العنصر الأهم في الرواية التي ستقصها كاتي هاريسون لصديقاتها، سيكون الفارس الأسمر الذي أنقذ حياتها.

وهمس مايك في أذن كرلي:

«أعتقد أنها تغلبت على محنتها، أليس كذلك؟ في الظن أن السيدة الشابة لن تمانع في تكرار المغامرة في حال تأكدت أنها ستجد الرجل المناسب لانقاذها. دارت رجل جذاب فعلاً».

«لا أنكر ذلك».

أحست بصدره يتقلقل في أعماقها طوال السهرة. أي امرأة تستطيع أن تقاوم كل هذه الجاذبية.

«يبدو أن روشيل ليست سعيدة بعملية الانقاذ هذه. لا تحب أن يشاركها أحد اهتمام دارت».

ورفعت كرلي رأسها إثر كلمات مايك لتتأكد مما يقول، فالتقت عيناها بعيني دارت، ورأت فيهما مرحاً مفاجئاً وشيئاً من التحدي.

بيلا وميرلان كانا مستغرقين في حوار مع جيوف هاريسون حول اختلاف الأرض والطبيعة بين أستراليا ونيوزيلندا. وكان كل طرف يمتدح محاسن أرضه … الطرف الآخر، مع التأكيد على تمسكه بأرضه أولاً.

وبعد تناول القهوة، ألقى دارت على آل هاريسون محاضرة طويلة عن مخاطر السفر في هذه الأرض الموحشة والصعوبات التي … وكيفية تفاديها. فكثيرة هي القصص التي تروى عن أناس فقدوا حياتهم لأنهم لم يحملوا مؤونة كافية من مياه الشرب، أو انقطع الطريق أمامهم … فالذي لم يألف المساحات الرملية الشاسعة يقتله الخوف والوحدة والقلق. ورغم تحذيرات الرعاة والسكان الأصليين يخاطر بعض السياح بترك سياراتهم عندما يفقد … ويشعرون … على الأقدام، وهنا تكون المأساة.

وبعد أن انتهى دارت من حديثه نهض ليتصل بجهاز اللاسلكي، وسيلة الاتصال الشائعة في هذه المنطقة، بأصحاب المزرعة التالية ليوصيهم بالزائرين. وهم بدورهم سيتصلون بأصدقائهم لتسهيل رحلة آل هاريسون. وهكذا سيكون دائماً أحد ما في مكان ما يسهر على سلامتهما. وعندما سيصلان أخيراً إلى بلادهما، سيصبح بإمكانهما اخبار أصدقائهما أنهما اجتازا قلب أستراليا الميت بدون خوف أو خطر.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولا طعام الفطور، ركب الزوجان سيارتهما المزودة بكل ما يمكن أن يحتاجانه من مؤونة، وودعا الجميع. وقبل تحركهما، أخرجت كيتي هاريسون رأسها من نافذة السيارة … قائلة:

«هل تسمح لي؟»

وردّ صوتها طفولياً خجولاً، فأحنى دارت رأسه مبتسماً.

«طبعاً لا يمانع جوزيف».

فأسرع الزوج يقول مفاجئاً:

«نعم. كنت محظوظاً لأني وضعت خاتم الزواج حول اصبعها قبل أن تلتقي بك».

قبلت «كاثي هاريسون» خد «دارت»، واستقلت في مقعدها والمسرح لأعينيها شكراً للمعاملة اللطيفة التي تلقتها عبرت عنه بالمسرح بعدما عجزت الكلمات عن ذلك.

وزوّدها «دارت» بمعلوماته الأخرى، قبل أن يصعد من السيارة وهو يلوح لها مودعاً تحت «روشيل» تراجع

«لم أرَ رجلاً على رأيتم كيف تصرفت؟ كيف تسمح لنفسها بذلك وزوجها جالس بجانبها؟»

فأجابتها «كورلي» ساخرة قبل أن تلحق «بسوزان» وبيللا» إلى داخل المنزل:

«أليس من الأفضل أن تتصرف كذلك بوجوده بدل أن تنتظر غيابه؟»

والتمت العائلة في غرفة الجلوس. جلس «دارت» قرب «روشيل» وأخذ ينظر إلى «كورلي» التي كانت منشغلة عنه بالصحافة «وستيفن».

وهمست «روشيل» بصوت محمل بالمعاني الخفية:

«انهما يختلفان كثيراً برغم فصر المدة التي مرت على تعارفهما. اعتقد انه التقارب في السن.»

وسمعها «ستيفن» برغم استغراقه في الحديث، فلم يمالك نفسه من التعليق بسخرية:

«كلماتك هذه تدل على قلب طيب يا آنسة «تيناشتو».»

وعاد يركز اهتمامه على «كورلي»:

«أنا معجب بالطريقة التي اعتنيت بها بالسيدة «هاريسون» يا «كورلي». هل تعرفين أني كنت احلم بأن أصبح طبيباً في يوم من الأيام. لكن الظروف لم تسمح بذلك.»

واستغلت «روشيل» هذه العبارة لتنتقم من سخرية «ستيفن» السابقة بها، «حسناً فعلت. هناك من تراوده الظنون حيال الكثير منا.»

«روشيل، روشيل. اظهري قليلاً من الاحترام للناس. لن تجدي زوجاً بهذه الطريقة.»

وعقبت «روشيل» على نصحها المثل وهي تحترق غيظاً، وتابع الزوقف دعون حولي «للقاضي» وهي تحمل باقة من الزهور الصفراء وضعتها في اناء جميل،

وكان من الممكن ان يمر نحوها هذه المرة على خير لولا أن لاحظت «روشيل» تسرب بعض قطرات الماء من أسفل الاناء، فصرخت:

«لا تضعيه على الطاولة. ستفسديها.»

أرادت أن تحمي ما تعتقد أنه سيكون لها مستقبلاً. صرخها الأمر أصاب «ميني»، فسقطت الإناء من يديها كما توقعت «كورلي» وتناثر الزجاج المحطم على السجادة. آثارت «كورلي» إلى «ميني» «لهيدي» من روعها

«عودي الى المطبخ يا «ميني». لا تخافي لن يغضب احد منك. لم تكوني تقصدينه.»

وخرجت الفتاة الصغيرة تركض خوفاً وهي تستمع «روشيل» تكول بغضب:

«لا أعرف لماذا لا تتخلصون من هذه الفتاة الطائشة. انها خطر متحرك.»

ولم يجبها أحد. انحنت «كورلي» تجمع الزهور الصفراء عن الأرض، وفجأة تأوهت بصوت خافت، وسالت الدماء من قدمها داست على قطعة زجاج كبيرة اخترقت احدى فتحات حذائها الصيفي.

وأسرع اليها «دارت» بعدما لاحظ شحوب لونها. كاد يغمى عليها ذاتياً عند مشاهدة الدم وهي طفلة. رفعها بين ذراعيه بينما كان «ستيفن» يربط الجرح بمنديله النظيف ويحاول أن يهدئ من روعها.

«أنا كلمح، كلهم شجعان.»

«قالت لك سابقاً ان لكل قاعدة استثناء.»

رأتها بضعف وهي تشعر بالأشياء تتمايل حولها، وحاولت السيطرة على نفسها

«لماذا تتصرف بهذا السخف؟»

سألتها «روشيل» وفي عينيها تأنيب واضح

«هل تتصرفين دائماً بهذا السوء لدى رؤية الدم؟»

«نعم».

هزت «كورلي» رأسها بضعف واستراحت على كتف «دارت».

«لا تتصرفي كطفلة يا «كورلي». سأنظف الجرح. هل تستطيعين تحمل ذلك؟»

أجلسها على المقعد وذهب ليحضر بعض الاسعافات الاولية من غرفة الحمام. نظرت «كورلي» إلى منديل «ستيفن» المخضب بالدم، وارغمت نفسها على التصرف كانسان بالغ لم تعد طفلة، وعليها الا تهمل تخوف طفولتها تنتظب

عليها، عضت على شفتيها وعادت للتفكير بأمر يسعدها.

وعندما عاد «دارت» عرضت عليه «رشيل» أن تساعده بتضميد الجرح، فرفض مبتسماً. عقدت حاجبيها استياء واعترفت بينها وبين نفسها غاضبة أنها لن تحب «كرلي» هذه أيضاً، يا لها من طفلة مدللة!

وبدأ «دارت» بتنظيف الجرح. كان عميقاً لكنه تمكن من وقف النزيف، ومن ثم ضمد قدم «كرلي» بعد أن تأكد من عدم وجود أي بقايا زجاج.

شكرته «كرلي» معتذرة:

«آسفة لم أتوقع حدوث هذا.»

«على المرء أن يتحمل حدوث هذا.»

وضحك مداعباً، وفعلاً انحنى عليها ليقبل وجنتها فأحست «كرلي» بسعادة لم تعرفها من قبل.

«طالما فعلت ذلك.»

قابلها ساخراً كعادته.

«ظننت بأني ربما سأفقده.»

ولم تستطع «رشيل» إبعاد عينيها وهي ترى من بعيد المودة السائدة بينهما.

«عزيزي «دارت»، ألا تعتقد أنه من الأفضل ألا ترافقنا «كرلي» في نزهة بعد الظهر؟ لا أظن أنها تستطيع تحمل [illegible] الرحلة.»

«لن يفوتني أي شيء من مرافقتكم.»

ونهضت فوراً لتثبت قولها. فضحك «دارت»:

«فعلاً شجاعة لعلها ارتاحت الآن. علي أولاً أن أنجز بعض الأمور.»

ووضع يده على كتف «رشيل».

«رشيل، أنت تعرفين ما سنحتاجه لهذه الرحلة. على فكرة اتصلي [illegible] وأخبريه أنك ستحتاجين الأشياء ليومين أو أكثر.»

وأشرق وجه «رشيل»، أما «كرلي» فاضطربت وخرجت مسرعة إلى الشرفة الخارجية لتخفي انفعالها. الألم لم تعد تشعر به في قدمها وحسب بل أيضاً في قلبها لكنها لن تحاول أن تحلل مشاعرها الآن.

٦ ـ أشواك الغيرة

فاجأهم الغروب وهم يشقون طريقهم إلى التلال الرملية، «دارت» و«رشيل» في المقدمة، «سوزان» و«مايك» في الصف الثاني، وأخيراً «كرلي» و«ستيلي» يتحدثان ويضحكان بصوت عال.

وأشار لهم «دارت» بالتوقف.

«أين تريدون نصب الخيام لقضاء الليلة: على التلال أم في الوادي؟»

وأجابت «رشيل» و«سوزان» بصوت واحد:

«على التلال.»

التفت «دارت» إلى «كرلي».

«الوادي، أليس كذلك؟»

كان يعرف تماماً مكانها المفضل لكنها لم تشأ أن تفرض خيارها على الآخرين.

«أي مكان يرضيني يا «دارت». اترك الخيار لهم.»

«سنخيم في الوادي إذن.»

وضحكت «رشيل» لتخفي استياءها الواضح من اهتمام «دارت» برغبات ابنة عمه.

«حسناً سنذهب إلى الوادي.»

وبعد عشرين دقيقة كانوا يضربون خيامهم قرب الينبوع الصغير في وسط الوادي. وانصرفت الفتيات إلى إعداد أماكن النوم، ونصب الخيام، أما «دارت» و«مايك» فاتفقا بجمع الأغصان اليابسة لإشعال نيران المخيم.

وبعد قليل تحلقوا حول النيران يتنشقون رائحة الشواء التي أخذت تشتعل بسرعة حتى يسكت صراخ معدته المتقلصة جوعاً

تناولوا طعامهم بصمت وكأنهم لا يريدون تعكير سكون هذه الليلة الهادئة. أحسوا براحة عميقة تتسلل إلى كيانهم، فيها مزيج من الفرح والسعادة. وفجأة تعالى صوت «كولين» يغرد بلحن أغنية ريفية تعلمتها في طفولتها. شجي صوتها الملائكي الرخيم فأصغوا باهتمام إلى هذا اللحن الذي تنشده للطبيعة والحب والجمال. وعندما أطلقت آخر نغمة في عتمة الليل، صفق الجميع استحساناً حتى «روشيل» عبرت عن إعجابها بحماس ملحوظ.

ونظر «دارت» إلى ابنة عمه بفخر وحنان. كم تبدو رقيقة وجميلة! لا لن يضعف. والتفت إلى «روشيل»

«ما رأيك بموهبة قريبتي؟»

«رائعة «دارت» بكل سرور»

وابتعد بعد ذلك وهما يتسامران همساً. التفتت «كولين» إليها بابتسامة باهتة وانتهز «مايك» فرصة شرودها ليقترب منها.

«صوتك رائع يا «كولين» كل شيء فيك رائع»

«هل تستعمل هذا الأسلوب دائماً للتقرب من الفتيات، يا «مايك»؟ وسامتك وحدها كفيلة بالشكر»

وأحست فجأة بجسم لين يصطدم بوجهها، ونظر مذعوراً إليه وطار ليلاً. ارتعدت «كولين» خوفاً واشمئزازاً وأمسكت بذراع «مايك» بحركة لا شعورية.

«يا إلهي لم يكن شيئاً إلا خفاشاً»

«وأنا أيضاً لم يكن يخيفني إلا هذا»

وانحنى «مايك» يقبلها في شعرها وجبينها، وقبل أن تنطق «كولين» بكلمة واحدة، انصرف عنها عندما سمع «سوزان» تناديه لمساعدتها في أمر ما.

عضت «كولين» على شفتيها وهي تراه يبتعد عنها بسرعة. كيف سمح لنفسه بتقبيلها! وأحست بوجود شخص ما وراءها فالتفتت لترى «دارت» يحدق فيها

بقسوة

«ما بك هذه المرة يا «دارت»؟ يخيل إلي أني لن أستطيع أبداً القيام بشيء مهما فعلت»

ولم يحاول «دارت» السيطرة على غضبه بل أجابها بحدة

«الطريق في هذه الرحلة ليس سهلاً، ومن الصعب العثور على عمال أكفاء يرضون العمل في ظل هذه الظروف القاسية. ومن المستحيل إيجاد شخص بمهارة «مايك».»

«لا أفهم ماذا تقصد»

وانقض على معصمها بعنف، فكادت تصرخ ألماً

«بلى يا «دارت». أنت تؤلمني»

«لا تعذبيني «كولين». أنت فتاة جذابة وأنا لا أريد أن أخسر «مايك». أنا بحاجة إليه»

«لكنك لست بحاجة إلي. لو فرضت عليك الظروف أن تختار أحداً، سأكون أنا من يرحل. أليس كذلك؟»

«بل إنني لن أحتفظ بكما معاً»

«لم أكن أعلم أنك تربط عملك بعواطفك الخاصة»

«يكفي «كولين» تعرفين جيداً ما الذي أرغب منك. فلننس الأمر الآن. كان النهار متعباً.»

«طبعاً أنت تأمر ونحن ننفذ.. لا أتصور كيف احتملتك في يوم من الأيام.»

«وما زلت تحبينني يا ابنة عمي المغرورة.»

«الحب لا يمكن أن يتحول إلى عداء يا ابن العم الكبير.»

«هل هذا هو السبب الوحيد؟»

رفضت الإجابة، وأشاحت عنه بوجهها.

«اذهبي إلى خيمتك الآن. حان وقت النوم.»

ولم يكد الظلام يستكين حتى أفاق الجميع على هدير صاخب يقترب منهم تدريجياً. واهتزت الأرض بإيقاع متتال، سريع، مريع. أصغوا جيداً وما لبثوا أن

شاهدوا قطيعاً من الخيول البرية يسابق الريح باشتداد وتطوان من لم يعرف القيد في حياته. وتوقف القطيع قرب الينبوع يروي عطشه.

وخرج القمر من وراء سحابة عابرة، ليغرق ذلك القطيع بضوئه المتلألئ.

شهقت كولين وهي ترى الحصان الأبيض يتألق كتمثال فضي نحتته يد فنان رمزاً للأصالة، والقوة، والجمال.

«آه يا دارت. كم يبدو هذا الحصان خيالياً في ضوء القمر، وكأنه جزء من حلم بعيد لا يتحقق فعلاً الا في الأساطير».

«اخفضي صوتك كولين. لحظة واحدة وسيشعر بوجودنا».

ولم يكد دارت يكمل عبارته، حتى رفع الحصان رأسه يصهل عالياً لتحذير اتباعه من خطر قريب. رائحة الانسان والنار يعرفها جيداً، وحاسة الشم لديه لا تخطئ. وبجرأة وكبرياء انطلق عائداً الى التلال ووراءه القطيع يضرب الأرض بحوافره، حتى ارتعدت خوفاً من غضبه.

انتهى الحلم، وعادوا الى فراشهم.

استيقظت كولين مع بزوغ الفجر، تثاءبت براحة والتفتت الى خيمة دارت. كانت فارغة. لا بد انه ذهب للبحث عن الحصان الأبيض. تعرفه جيداً. لن يترك جواداً بهذا الجمال يفلت من قبضته.

تسللت من مكانها بهدوء حتى لا ينتبه الآخرون. امتطت فرسها سورشا وانطلقت بها الى التلال بحثاً عن دارت. لن تجد صعوبة في العثور عليه من العجوز: علمها كيف تقتفي الأثر جيداً في الأرض الندية الحمراء.

واضطرت كولين الى شد فرسها عندما وصلت الى ممر ضيق يتعرج بين صفين من الشجيرات الكثيفة. واحست فجأة بشخص ما يرفعها بقوة عن صهوة جوادها ليضعها أرضاً «يا الهي كولين. ألا تستطيعين ابداً مقاومة رغبة تعريض نفسك للخطر؟»

وصدقت تلك المرأة: قد تفعل الكثير للرجل الذي تحب، لكنها تفعل أكثر للرجل الذي تكافحه.

بأسفة. لم اكن اقصد ازعاجك».

وعندما رفعت عينيها معتذرة الى وجهه الأسمر الجذاب، صرخ صوت ما في داخلها: «الهي. دارت. انك تحبين دارت».

«لا. لم تزعجيني يا كولين. انا خائف على سلامتك. ما زلت طفلة صغيرة، وانا رجل متعجرف. انا لم اطلب المجيء الى كتفارا. انت من اصر على ذلك لكني استطيع مغادرتها في اي لحظة».

«هل تريدين ذلك؟»

لم تجب. ضغط على كتفها بعنف.

«ستبقين هنا الى الأبد يا صغيرتي. انت جزء من كتفارا وهي جزء منك. لن تستطيعي مغادرتها ابداً».

«انك لا تزال تتحكم في حياتي».

قالتها بعصبية، وندمت فوراً على الملاحظة التي افلتت منها. لكن دارت كان قد انشغل عنها فور سماعه الايقاع القوي الذي اخذ يتردد صداه في الوادي.

«كولين. تلك الفكرة جيدة قد تنجح. سنستخدم فرسك كطعم، انها حيوان جميل ولا بد ان تلفت انتباه الحصان الأبيض».

وابتسم لها مداعباً.

«ورغم كل شيء، اشعر بخطورة هذه الفكرة».

«اتقي ذلك يا دارت».

«ابقي هنا وابتعدي عن المشاكل. هل فهمت؟»

«نعم. ارجوك دارت كن حذراً».

امتطى دارت صهوة جواده الأسود وانتظر بدون حراك اقتراب القطيع وكما توقع الرجل لفتت سورشا الجميلة انتباه الحصان الأبيض فتحول مساره باتجاهها. وقبل ان يصبح قريباً بما فيه الكفاية ليشتم رائحة الانسان، خرج دارت من مخبأه كالسهم وهو يلوح بالحبل الذي لا يخطئ منه مرمى في رامي ماهر. وبفعل حصان دارت الحركة الى جانب سيده، فانطلق يسابق الريح وهو

يصهل متحديا منافسه.

وتمكن الفارس من تطويق عنق الجواد البري برمي الحبل مرة واحدة. وما ان شعر الحصان الأبيض بالقيد حتى تفجرت كل وحشيته البدائية. وقف على قائمتيه الخلفيتين يضرب الهواء بقائمتيه الأماميتين محاولاً استرداد حريته. وتساقط الزبد من فمه وهو يصهل. فكان في صوته صرخة ألم رددتها التلال الرملية.

واقترب منه دارت تدريجيا وهو يشد على الحبل بقوة حتى سقط الثائر الأبيض على جانبه مبللا بالعرق، ومشلولاً بالخوف. وبعد ثوان انتفض الحيوان الأسير رافضاً الاستسلام بسهولة وظل دارت ممسكا بالحبل وهو يقترب أكثر فأكثر من الجواد الثائر. إنها معركة خطرة: ضربة واحدة من حوافر الحصان قد تقتله أو تشله مدى الحياة.

وانطلق الحيوان الأبيض في سباق مجنون، والشرر يتطاير من عينيه. وظل دارت في اثره، ممسكا بالحبل، وهو يشجع جواده على قبول التحدي الذي اختاره منافسه. السباق هنا سيحدد نتيجة المعركة. والخاسر سيكون من يتعب أولاً. فانتصرت إرادة الرجل.

٧ - المزحة السمجة

مكثت رشيل هناك بضعة أيام، لتتابع محاولات دارت ترويض الحصان الأبيض أو تحطيمه كما كانت تقول. ولم يكن دارت يحب استخدام كلمة تحطيم بل كان يستعمل دائما كلمتي تدريب أو تعليم الحصان أصول التعامل مع رفقة الانسان.

وفي اليومين التاليين، توافد كل سكان المزرعة لمشاهدة المواجهة العنيفة بين الحيوان العنيد بحريته والرجل العنيد بإرادته. سور الحظيرة لم يكن يخلو في أي ساعة من ساعات النهار من المتفرجين، بعضهم قطع أميالاً عدة ليكون شاهداً في اللحظة التي سيمتطي فيها الرئيس الحصان للمرة الأولى.

وضع الرجال سرجا على ظهر الجواد الذي وقف يزمجر غضبا بعدما غطى بن رأسه بكيس كبير ليمنع عنه الرؤية. قوائمه الأربع كانت ترتجف بعصبية تنذر بأن العاصفة التي تتفاعل في داخله لا بد وأن تنفجر في الدقائق المقبلة.

ابتعد دارت عن السور حيث كان يتحدث بهدوء مع مايك، وبحركة سريعة ورشيقة قفز على ظهر الجواد الذي تشنج قليلاً استعداداً للمعركة.

وأمسك الجميع انفاسهم، لم يتحرك منهم أحد. ولدقيقة طويلة أخذ دارت يتلمس عضلات الحيوان ناعمها ويمسح بعنقه. اوماً برأسه الى بن. فأسرع العجوز يرفع الكيس عن رأس الحصان الذي وقف لثوان مصعوقاً بعدما أعمته أشعة الشمس. لكنه ما لبث ان ثار لكرامته المجروحة فأخذ يركض بجنون ويرفس بعنف ليسقط أول رجل تجرأ وامتطى صهوته.

أخذوا يراقبونه يتلوى بثورة وهو يحاول أن ينحي عنه دارت الذي كان

يشد على اللجام ليبقي رأس الجواد عالياً. وحاول الحيوان الذي لم يذق طعم
الحرية بعد، ان يتمرد على ارادة الرجل الذي يحاول ترويضه وارغامه على
الاستسلام. كيف يرضى بالسجن والعبودية، هو الذي كان يترأس قبل ايام قطيعة
قطيعاً من الخيول البرية، يجوب عبر التلال ملأنا صدره بالهواء الطلق وأشعة
الشمس. شعلة الحرية مازالت تحترق في عينيه القاتمتين ولن يتخلى عنها
بسهولة.

ظل الحصان يركض في الحظيرة خائفاً، غاضباً وقد غطى الغبار الاحمر ناصع
الفضي. تصاعد الغبار غيوماً حمراء في الهواء، وعلق بأنوف كل الذين كانوا
يتحلقون حول السور. لكن احداً منهم لم يتحرك من مكانه. ويبدو ان احداً
منهم لم يكن حتى يبالي بالغبار. الاثارة كانت تتألق على كل الوجوه، وتعالت
اصوات المراقبين الاصليين العالية الحرة تشجع الرئيس وتؤيده في معركته.

الفتيات ربطن مناديلهن الملونة حول وجوههن، ما عدا «كوليي» التي سقط
منديلها عن وجهها فلم تقم بحركة واحدة لاعادته. كانت مستغرقة تماماً في
التحدي القائم بين الرجل والحصان.

«دارت» من امهر الفرسان فعلاً. يتوقع رد فعل الفرس حتى قبل ان يقوم به.
مرونته ورشاقته وصلابته لا يمكن ان يضاهيها امهر الفرسان المعروفين بتمرسهم
على ترويض أكثر الجياد تمرداً.

كان «دارت» يجلس مستقيماً على سرجه، وهو يحاول ان يرغم الحصان المتعب
على الاستسلام بحركات اسرع. ارهقه واجبره على الاستسلام. وفعلاً خفف الجواد من
رفساته العنيفة التي يمكن ان تقضي احداها بسهولة على حياة اي رجل يستخف
بها. وتدريجياً هدأ تماماً. «دارت» يتحدث اليه بهدوء وحنان وهو يربت على عنقه
البلل بالعرق. وانتهت المعركة.

اقتربت «روشيل» من السور فور نزول «دارت» عن جواده. كان وجهها
الاسمر الجذاب يشع اعجاباً.

«كنت رائعاً يا «دارت»»
وقف ينظر اليها شارداً ووجهه الوسيم لا يعبر عن شيء.
«لا أحب هذا العمل يا «روشيل» لكنه ضروري».
ورأت «كوليي» «روشيل» تلف ذراعها حول ذراع «دارت» فأشاحت بوجهها
وهي تحاول ان تكبت هذا الاحساس الغامض والغريب الذي انتابها وجعلها تشعر
بمزيج من الغضب والحزن. وسمعت ضحكات «روشيل» ترن على بعد امتار
قليلة منها فقررت ان تتجاهل الامر كلياً. تنتظرها في المنزل. من الافضل ان
تركز افكارها حالياً على العمل. في الصباح طلبت منها عمتها ان ترسل برقية
تهنئة لاعز قريباتها في مدينة «اديلايد»، وذلك بمناسبة عيد ميلادها.

انعطفت «كوليي» من الممر الخلفي بها قبل ان تذهب الى المكتب الصغير
حيث وضع جهاز الارسال. كانت الغرفة صغيرة مليئة بخرائط كبيرة تمثل منطقة
القناة ومقاطعة «كوينزلاند» وجنوب «استراليا» والمناطق الشمالية. الجدران
كانت غارقة في سيل من رماح واللوحات البدائية. ووراء المكتب الكبير علق
جلد تمساح انعكس عليه ضوء النهار المتسلل من النافذة العريضة. ابتسمت
«كوليي» بحنين وهي تحدق الى جلد الحيوان الميت. اصطاده «دارت» في مزرعة
عمه الواقعة في المناطق الشمالية. اصطاده في الثانية عشرة من العمر وأصر
العم «...» على ارجاع الجلد معه الى «كنغارا داون» وحمله الى البيت
الكبير. [illegible] حفلاً يشهده كل من في المزرعة.

وفي احدى الامسيات، وبينما كان رئيس العمال عائداً الى منزله من جولة
مفاجئة، رأى الرجل امام بابه تمساحاً يتربص به. اصابه الهلع وكاد يفرغ في الجلد
بوابل من الرصاص لولا تدخل بعض العمال الذين دفعهم «...» الى كمين
هناك لمراقبة المشهد المضحك. وعندما هدأ رئيس العمال اخيراً أكد ان هذه الحادثة
سرقت من عمره عشر سنوات. وضحكت «كوليي» كما كانت تفعل دائماً كلما وقع
نظرها على الجلد. سكان المزرعة ما يزالون يتندرون حتى اليوم بالمقلب.

واجتازت «كوليي» الغرفة لتجلس امام جهاز الارسال. وعندما وضعته على
الموجة التي تريد، سمعت صوت رجل يقول:

إذا لم يكن هناك من بد، فلي. اتركوا المجال للرسائل الآتية من مزارع [illegible]

فاطلع صوت امرأة رفيعاً بالحيوية وعرفت «كولي» صوت «نولا رتشموند» جارتهم من مزرعة «رتشموند» التي يشار إليها بأحرف ر. ج. ب. وقرأ الرجل برقية حب طويلة وصلتها من زوجها الموجود حالياً في «انكلترا» في رحلة عمل. [illegible] «كولي» أن لا تسمع النكات من الضحك حقاً أن تشعر أي هذه المناطق النائية، أنه أقرب إلى جارك الذي تفصله عنك مئات الأميال، مما لو كنت تجاوره في شقة في المدينة.

ومرت ساعات الصباح بسرعة، و«كولي» تستمع إلى مشاكل المزارع الكثيرة المتفرقة في هذه المنطقة الشاسعة. رؤساء عمال يطلبون موافقة [illegible] ومسائلهم [illegible] على امرها امهات ترسلن برقيات [illegible] من [illegible] العودة إلى المنزل بعد اجازة طالت في المدينة، ومشاكل عائلية تحل على الهواء. [illegible] هذه الرسائل [illegible] بالطبيب [illegible] لمعالجة طفلها الرضيع.

وانتهت «كولي» [illegible] كعادتها [illegible] الوقت الذي تريد. واطفأت الجهاز.

وقفت وتمطت [illegible] قبل أن تتوجه إلى مكتب «دارت» المجاور لغرفة الإرسال. حيث ابن عمها [illegible] هذه على كل أفراد العائلة. ولم [illegible] «روشيل» من القاعدة. ورغم [illegible] هذه الغرفة [illegible] منها انطباع بالقوة. كان من الواضح أنها تخص رجلاً. على أحد الجدران كان هناك رسم زيتي كبير للعم «سيدريس». [illegible] وشخصية الفنان الذي رسم الصورة «راشيل» أي صاحب اللوحة المعلقة في غرفة الجلوس.

وتطلعت عينا «كولي» [illegible] القامة الطويلة البارزة العضلات. كان العم «سيدريس» شديد الوسامة في عينيه وفمه تعبير ينم عن شيء من القسوة والتسلط وجهه يدل على إنسان أنشأ نفسه امبراطورية صغيرة في منطقة نائية... رجل عرف كيف يجري الصفقات [illegible] العم «سيدريس» يشبه والده لكن تعبير الوجه كان يختلف قليلاً. والدها أكثر رقة وحناناً

في يوم من الأيام سيعلق رسم «دارت» هنا أيضاً لكن [illegible] سيعلقون رسم روشيل؟ ما من شك أنها الزوجة الثانية لرجل من آل «كينغ». ارتعشت «كولي» برغم حرارة الغرفة. «دارت» أيضاً سيكون زوجاً ممتازاً وسامته الهادئة، التي توحي بالكثير من الرجولة، اكتسبها من عائلة والدته. لكن طابع آل «كينغ» المميز كان واضحاً في شخصيته وتصرفاته.

لكن ماذا عن «روشيل»؟ [illegible] «روشيل». لاحظت أنها كانت تتكلم بصوت عال. ضحكت لانفعالها وخرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها تلاحقها نظرات العم «سيدريس».

في الرواق دقت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. ما زال أمامها ما يكفي من الوقت لتلحق بـ«دارت» و«بن». كانا يعملان في الحظائر على ترويض ما تبقى من الخيول البرية. رأت «دارت» [illegible] فاقتربت [illegible]

[illegible] اختار الفرس الصغيرة [illegible] حيوان أصيل [illegible] يعرف كيف يختار الجواد الأصيل [illegible] في هذا المجال.

[illegible] «دارلا» [illegible] العظيم؟ كنت أعتقد أن لك شهرة واسعة في هذا المجال.

ابتسم «دارت» وأخذ يتابع محاولات «بن» في ترويض الفرس الصغيرة. والتفت فجأة إلى «كولي» ليسألها بعتب:

- كنت أول من غادر الحظيرة هذا الصباح. ألم تعجبك الطريقة التي روضت بها الحصان الأبيض؟

أراد مناقشتها لكنها أجابته بجدية لم يكن يتوقعها منها:

- لا أعرف. يحزنني [illegible] رؤية أي كائن يحاول الحفاظ على حرية كان [illegible]

[illegible] كالحصان [illegible] وهو يحاول أن ينفي التهمة عنه.

- لم أحاول تحطيمها أنا لا أحطم الخيول. أنا...

قاطعته «كولي» ساخرة، وهي تحاول أن تقلد طريقته في الكلام:

- أعرف يا سيد «دارت». تريد تدريبها على أصول التعامل مع الإنسان وأنت ماهر يا سيد «دارت».

«ماعدا يا آنسة كيتي. الله انت ايضاً بحاجة لمن يعلمك اصول التعامل مع الناس».

«اكون شاكرة لك لو قمت انت بهذه المهمة يا استاذ هارت».

وكاد الحوار يتحول الى مشادة عنيفة، لولا اقتراب بن الذي رفع قبعته ليحيي كولي بابتسامة عريضة:

«صباح الخير آنسة كولي».

والتفت الى هارت يسأله بجدية:

«هل انت مشغول يا سيدي؟»

«لا يا بن، ما بك؟»

«احتاج لمساعدتك. لا استطيع السيطرة على الفرس. يبدو انها عنيدة الارادة».

«حسناً يا بن، علينا اولاً محاصرتها في زاوية محددة. كولي انزلي عن السور، وابتعدي قليلاً عن الحظيرة».

وأحست كولي بشخص ما يقف وراءها:

«اهلاً بوكا جئت لترى فرسك البرية كذلك؟»

أجابت عينا بوكا حتى قبل ان ينطق بكلمة واحدة:

«نعم، كم هي جميلة.. فرسي!»

والتفتت اليه بعد فترة:

«لا تقترب من الحظيرة يا صغيري. ارجوك ان تبقى قرب الآنسة كولي، انها ليست فرسك بعد».

وأمسك بوكا بيد كولي، وعيناه لا تفارقان الفرس السوداء.

تمكن الرجلان من محاصرة الفرس في إحدى الزوايا، لكن قبل ان يتمكن بن من رمي الحبل حول عنقها، ركضت نحو السور تحاول تخطيه بقوائمها. ورمى هارت حبله بدقة فالتفت العقدة العريضة في آخره بعنقها. اسرع بن لمساعدته في شد الحبل، وسقطت الفرس الغاضبة بثقل على جانبها تئن من فريستها. ظل بن ممسكاً بالحبل بينما اقترب هارت منها وهو يتكلم ببطء وهدوء

ليطمئن الفرس الخائفة. نظرت اليه بهلع، فمد يده وربت على ظهرها بحنان حتى هدأت تدريجياً.

«هل انتهى الامر؟»

كان بوكا قد أغلق عينيه حتى لا يشاهد عذاب الفرس.

«نعم يا بوكا. افتح عينيك. كل شيء على ما يرام الآن».

واقترب منها هارت:

«تعال يا بوكا الا تريد التعرف على فرسك الجديدة؟» وانطلق بوكا في رقصة حماسية يعبر بها عما عجزت الكلمات التعبير عنه ولم يتوقف الصغير عن رقصه حتى سمع صوت جده الآمر:

«اهدأ يا صغيري. اهدأ متى تكف عن استعمال الطريقة الصاخبة للتعبير عن فرحك؟»

بدأ بوكا فوراً وبخفة تسلل الى فرسه ليراقبها بمزيج من الحب والشعور بالملكية.

«فرسي. انت لي.. لي وحدي».

ابتسمت كولي لرؤيته وراقبته بضع دقائق قبل ان تعود الى المنزل. عليها ان تنجز ما تبقى عليها من مهام قبل موعد العشاء.

لاحظت ستيلا فرحتها، لانها كانت تشعر بصداع قوي. ولما تناولت الفتيات طعام الغداء، بقين في الشرفة. أمضت روشيل و سوزان معظم ساعات الصباح تتنزهان في احضان الطبيعة. ابتسامة سوزان الرائعة شملت هذه المرة كولي أيضاً.

«كنت اتمنى لو رافقتنا في هذه النزهة يا كولي. كان الصباح رائعاً. ماذا فعلت كل هذا الوقت؟»

«كنت مع هارت و بن في الحظائر. اختار بن فرساً سوداء رائعة لبوكا. كم كان سعيداً بها».

وقطبت روشيل حاجبيها استياء.

«ماذا تعني؟ ليوكا ستفتقدين هذا النسيم ومعاملتكم الطيبة له ان يعرف حدوده بعد الآن. هل «دارت» لن يكون اكثر قسوة معه؟ انه مجرد فرس من اسطبل الاصطبل»

قاطعتها «كورلي» بغضب.

«يوكا سيصبح قريباً من اهم رجال الفرق تماماً كجد من صالح «دارت» ان يبدأ باكراً. كنت اصغر من «يوكا» عندما حصلت على جوائزي الأولى»

ولم تحاول «روشيل» اخفاء تعجبها.

«العائلة كانت طيبة في معاملتها لك ايضاً وما زالت حتى الآن»

استغلت «سوزان» من هذا الهجوم الواضح على قريبتها ان تسمع «روشيل» تتكلم بمثل هذه الصراحة من قبل.

«كورلي تبقى في كل الاحوال ابنة عم «دارت» ترعرعت في ارض «كنغارا» قبل مجيء اي واحد منهم. و«دارت» يحبها كثيراً»

ووضعت «كورلي» فنجان القهوة بعصبية على الطاولة، واستأذنت بالانصراف.

«سأذهب لأغسل شعري من الغبار الذي علق به في الحظائر»

وخرجت «كورلي» عندما استوقفتها «سوزان»

«تعالي معنا يا «كورلي». عليك وستخبرينا الرأي انه ينتظره»

«شكراً «سوزان». اعتقد انكما ستستمتعان بالرحلة اكثر بدوني»

وغادرت المكان تاركة وراءها صمتاً ثقيلاً. قطعته «روشيل» بعد لحظات.

«لا تقولي انك وقعت انت تحت تأثير الاعيب الآنسة «كورلي» كنت يا «سوزان»! كنت اظنك اذكى من ذلك»

«لا افهم ماذا تقصدين يا «روشيل»»

ونظرت «سوزان» صديقتها بعبوس، ثم شغلت نفسها بابريق القهوة.

«لا تنكري هذا النهار الرائع يا «روشيل». كنت قاسية مع «كورلي» عندما تعرفين اليها اكثر ستجدينها في غاية اللطف»

قطبت «روشيل» حاجبيها قبل ان تجيب.

«أنا انصح منك يا عزيزتي «سوزان» في نظرة اوسع بالناس وبالحياة. «كورلي» فتاة موارية ستكتشفينها مع الأيام. اسمعي نصيحتي يا صغيرتي وابتعدي عنها»

وبلعت «سوزان» ريقها بصعوبة. لا ترغب بجدالة «روشيل»، اعز صديقاتها، حتى الموضوع لا بد ان تغير «روشيل» رأيها قريباً. وقدمت «سوزان» لصديقتها فنجاناً من القهوة فتناولته مبتسمة.

«شكراً «سوزان». نستطيع الآن ان نتناول قهوتنا بسلام»

كانت «كورلي» تصطدم بـ«روشيل» وهي تنزل درجات المنزل جرياً. ولاحظت «روشيل» ان «كورلي» ترتدي ثياب الفروسية. ارادت ان تقول شيئاً لكنها غيرت رأيها فجأة، ومرت بصمت أمام «كورلي» وذهبت لتجلس في الشرفة.

ورمقت «كورلي» على عتبة المنزل. آه لو تعود «روشيل» الى [illegible] من لتستعيد الشعور بالامان والراحة وهذه الفتاة تسكن معها تحت سقف واحد، واخرجها من شرودها صوت «روشيل» الهادئ.

«هل انت ذاهبة الى الحظائر يا «كورلي»؟»

توقفت «كورلي» وهي تظلل عينيها بيدها لتقيها ضوء الشمس.

«نعم «روشيل»»

«دارت» يريد حصانه الأسود. هل تسرجينه لي يا عزيزتي؟ تأخرت عن الموعد»

وللحظة لم تصدق «كورلي» ما سمعت. سمرتها المفاجأة في مكانها. لم يكن «دارت» يسمح لاحد بلمس حصانه المفضل. وتمكنت «كورلي» من النطق اخيراً.

«ماذا؟ انت ستمتطين حصان «دارت» الأسود؟»

«طبعاً ومن يستطيع ذلك غيري؟ كنت اتمنى لو كان بامكانك القيام بهذه المهمة عني»

واشتعلت في عيني «كورلي» ثورة مكبوتة.

«طبعاً بامكاني القيام بهذه المهمة. اعرف كيف اتعامل مع الخيول. مثلك تماماً»

«بل أفضل منك» رددت «كورلي» في نفسها.

«حسناً يا «كورلي». لم اكن اظنك انك قادرة على ذلك»

واسترخت روشيل بتكاسل على سور الشرفة.

«ستوفرين عليّ الكثير من الوقت يا عزيزتي. سيكفيني سروالك الى الوادي».

«انها مجرد نزهة بسيطة يا روشيل استمتعي بوقتك».

«وأنت أيضاً».

وابتعدت كرلي بدون ان تلاحظ البريق الساخر في عيني روشيل. ولم تشك كرلي بنوايا الضيفة الحقيقية الا حين انطلقت بالحصان تسابق الريح. دارت طرفها مراراً لا تقارب جواده، وهو ليس من الرجال الذين يسامحون الفضول. لا، لا يمكن ان تقحمها روشيل الى هذه الورطة. دارت يريد حصانه، وهو يعرف تماماً انها تفوق روشيل مهارة في ركوب الخيل والبرهان ان جواد دارت لم يقلع ابداً رموها على ظهره.

وجالت كرلي التلال بحثاً عن دارت لتكون هي أول من رآه. ولمحته عيناها بين ذراعيه ليرتاح بقسوة عن الحصان، وعرفت فوراً من بريق الغضب في عينيه انها كانت ضحية لعبة شريرة. انصرف عنها دارت ليهدئه من روع الحيوان الثائر، فتعلقت عيناها بوجه ... التي وقف قريباً منها يتابع المشهد بقلق. واحس العجوز بحاسته السادسة انه لن يستطيع ان يفعل شيئاً لمساعدتها في هذا الوقت فابتعد ليجنبها احراج وجوده.

التفتت كرلي عينيها وهي تحاول جاهدة السيطرة على الذعر الذي بدأ يتسلل الى كل كيانها. كم يبدو دارت عنيفاً في هذه اللحظة انه من الرجال الذين يرهبهم الجميع، وينفذون اوامرهم بسرعة.

ورفعت كرلي عينيها احست بيدي دارت تضغطان على كتفيها بقسوة مؤلمة.

«أيتها البلهاء الصغيرة على علمي اني اريد مأساة اخرى على ارض هذه المزرعة الم احذرك من الاقتراب من جوادي الأسود؟ لماذا لم تطيعي اوامري؟»

وأخذ يهزها بعنف، وقد أعماه الغضب. انهمرت دموعها وهي تحاول ان تدافع عن نفسها

«لكن يا دارت...»

«لا أريد ان اسمع كلمة واحدة. استطيع تحطيمك يا كرلي. لا تتحديني اكثر من ذلك».

وتقلصت عضلات وجهه وهو ينظر اليها.

«هل نسيت اليوم الذي عثروا به على المزرعة؟ أعتقد انك تذكرين المشهد جيداً. انت مثلها تماماً. لا تعرفين حدود قدراتك كامرأة».

وهزها مجدداً بعنف. غضب العارم لم تشهد له مثيل من قبل. بل... مرة واحدة. هكذا كان يبدو العم ... عندما خرج ليقتل الحصان الذي اودى بحياة زوجته.

وقبل ان تعرف كرلي ما يجري لها وجدت نفسها مستلقية على ركبتي دارت التي لم يضربها بقوة كطفلة صغيرة. تدفق الدم الى رأسها، وظل في دماغها لم يكن يهمها ان تموت في تلك اللحظة. الدموع اغرورقت في عينيها لكنها لن تدعها تنهمر.

«يا له من رجل متوحش! كيف يجرؤ على ضرب امرأة؟ انها تكرهه.. نعم تكرهه.. تماماً تكرهه»

ولم تعرف كرلي انها كانت تصرخ الكلمات عالياً. سمعها دارت على الرغم بعدما هدأ قليلاً.

«سواء كرهتني أم لا، لن تنسي هذا الدرس يا كرلي. وأتمنى ان لا تعيدي الكرة. اكتشفت ان الافعال لها تأثير أكبر عليك من الكلمات».

«يا إلهي»

وطردت كرلي اظافرها في راحة يدها لتمنع نفسها من صفعه.

«كم أكرهك يا دارت. كيف تجرأت على ضربي ايها الشرير الطائش وقاحة؟»

وانهمرت دموعها غزيرة وهي ترد بعصبية.

«كيف تجرأت... كيف تجرأت».

«ساتجرأ على فعل اي شيء طالما انت في رعايتي».

«انك أبلى في عهدتك بعد ما حدث. انا غير مرغمة على تحمل هذا النوع من المعاملة. تستطيع ممارسة سيطرتك على كل من حولك، لكنك لن تتمكن مني

ابداً ايها الوحش الرهيب»

ورفعت يدها لتصفعه فكان اسرع منها.

«كفي عن الصراخ يا كرلي. لن اعتذر عما حدث. انت ارغمتني على تأديبك. الا تعتقدين ان الدرس الذي تلقيته الآن يبقى أفضل من ان تكسري عنقك على المدى الطويل».

وعلت كرلي الاهات من قبضته لكن بدون جدوى. الدموع في عينيها اعمتها عن رؤية وجهه الشاحب.

«ارجوك دعني اذهب يا دارت. لا تذلني أكثر. لو كنت رجلاً لقتلتك فوراً»

وعكس ما توقعت، ضحك دارت وتركها تذهب.

«لو كنت رجلاً يا كرلي لما حدث كل هذا»

وعندما تركها اخيراً، تطلعت عينا كرلي بآثار اصابعه التي تركت خطوطاً حمراء على بشرتها الرقيقة.

«كرلي. آه يا كرلي. كيف اتصرف معك؟»

وراقبها تنظر بصمت، ثم التفت ليناجي بن. ظهر العجوز بعد ثوان قليلة.

«عد بالآنسة كرلي الى المنزل يا بن. سأهتم انا بالحصان الأسود»

واقتيدت كرلي على صهوة الجواد بدون ان توجه نظرة واحدة الى دارت الذي وقف يراقبها بصمت.

وعلى بعد امتار التفت بن الى رفيقته الشابة ليعاتبها بحنان.

«لماذا فعلت ذلك يا آنستي. كان السيد دارت محقاً في غضبه»

وانهمرت دموع كرلي مجدداً.

«حتى انت يا بن؟»

ومد العجوز يده لتربت على كتفها محاولاً التخفيف عنها.

«اعذريني يا صغيرتي. لم اكن انوي جرح احاسيسك بكلامي. عرفتك منذ كنت طفلة صغيرة، لكني لا افهم ما الذي دفعك الى تحدي ارادة السيد دارت. انت تعلمين جيداً ان هذا الحصان بالتحديد اقوى من ان يخضع لارادة امرأة»

واكمل العجوز حديثه يحدثها بصوت حنون

«الا تذكرين اليوم الذي فقدت فيه سيدة كاثلين. حينها كانت سيدة عظيمة، لكنها كانت شديدة الاعتداد بارادتها وبسلامتها. انا اتذكر مصرعها من ركوب جواد السيد ميرون. لم تستطع. لن اتكلم الآن عن الماضي. صحيح تمسك في مكتب السيد دارت، كان خائفاً على سلامتك، ربما كان غضبه بهذه الشدة انه يحبك كثيراً يا صغيرتي. فيه يجري الدم ذاته»

وعضت كرلي على شفتها لتوقف ارتعاشتها

«لا أعتقد انه يحبني يا بن. بل يضيق بالمسؤولية التي ألقاها والدي على عاتقه»

«لا، لا تقولي هذا يا صغيرتي. انت من دمه ولحمه»

ولم تتمالك كرلي اعصابها اكثر من ذلك فانفجرت قائلة:

«انها روزليل الآنسة تينانت هي سبب كل ما حدث. قالت لي ان دارت يريد جواده. فسرقت شأنه الشبهة عنها»

«الآنسة تينانت لكنها تعرف جيداً ان دارت يحظر ابداً كل الاقتراب من حصانه. على الاقل بحقيقة ما جرى»

«لا، وارجوك يا بن. ان لا تخبره انت ايضاً بما حدث. يكفي ما جرى حتى الآن كنت ضحية مزحة سخيفة. لا ادري كيف صدقتها. يا له من نهار مزعج»

وابتسم العجوز وهو يقول:

«اعتقد ان الآنسة تينانت لا بد ان تعود الى منزلها قريباً»

وعادت الحياة الى عيني كرلي وهي ترد

«آمل ذلك يا بن. آه كم اتمنى ذلك»

٨ ـ الصفعة

صباح اليوم التالي استيقظت «روشيل» باكراً وزارت في المدينة لتختار مجموعة كبيرة من الزهور، ستنسقها لاحقاً بفن محترف ومتقن تعلمته خلال دراستها المكثفة في أحد المعاهد الفنية «الأسترالية».

وكانت «سوزان» تلاحقها كيفما توجهت، تستفسر منها أكثر عن مفردات الحياة في المدينة، وعن كل الأشياء الرائعة التي لعلتها ورأتها «روشيل».

ولم تعد «كرلي» تستطيع تحمل المزيد، فتركتهما لتساعد «بيلا» في الاعتناء بحديقة الأزهار الصحراوية، مكانها المفضل. معظم الغرسات كانت تتفتح في النهار وبعضها في الليل، فتتألق في احتفال رائع من الألوان يتدرج بين الأحمر والوردي والأصفر والأخضر والأبيض.

ووقفت «كرلي» قرب «بيلا» المنحنية على مجموعة جديدة من الشتلات اليانعة تعريها وتسقيها بحب.

«هل أستطيع مساعدتك يا عمتي؟»

«طبعاً يا عزيزتي. هذا نوع جديد يحتاج إلى عناية خاصة جداً. صحيح أنه يتطلب وقتاً طويلاً ليفرج عن زهوره لكن النتيجة تكون رائعة فعلاً وتستحق الجهد المبذول. هل يمكنك ريّ الغرسات التي انتهيت من زرعها؟ أنت تعرفين طبعاً أن هذا النوع من النبات لا يحتاج إلى الري إلا عند زرعه وبعد ذلك يترك بدون عناية»

«وأين أضع الماء؟ على جذور الغرسة فقط؟»

[illegible]»

ووقفت «بيلا» تنفض التراب عن ركبتيها

«إنها خطوة مهمة جداً»

وتناولت «بيلا» وعاء الماء لترش منه قليلاً على الجذور وعلى التربة المحيطة بها. لم ترش قليلاً على الأوراق الخضراء.

«هل عرفت كيف الآن؟ عليك أن تعاملي النبات بحب ورقة، وأنا متأكدة من أنك ستتولينها»

وعملتا معاً بصمت في جو عائلي ودي حميم. فرغم الفارق الكبير في عمريهما توطدت بينهما محبة عميقة وصداقة هادئة. وبين وقت وآخر كانت «كرلي» تلمح في عيني «بيلا» استسلاماً حزيناً، جعلها تشعر نحوها بحنان أكبر. من المؤسف حقاً أن العم «سيدريس» لم يترك لأرملته مبلغاً كافياً يؤمن لها الاستقلال المادي. صحيح أن «بيلا» ليست بحاجة إلى المال الآن، لكن الأمر يختلف عندما يعرف المرء أن له رصيداً خاصاً يعتمد عليه.

وعضت «كرلي» شفتيها عندما تذكرت «جارت». لقد تجنبها بالأمس كمن يتجنب مرضاً معدياً. لا، فلتقل بالأحرى إنها هي التي تجاهلته، لأنه لم ينتبه لها أبداً. كان مشغولاً بشرح حركات النجوم لروشيل لأكثر من ساعة.

وفجأة ظهر «بركا» من وراء سور الأعشاب، فأفزع السيدتين المستغرقتين في عملهما وأفكارهما. رأى الصبي شعر «كرلي» الناري من بعيد فجاء ليسليها. ابتسمت «بيلا» لكرلي. صحيح أن رفقته ممتعة وطريقة كلامه ستسلي عملها أيضاً. وأخذ «بركا» يركض من واحدة إلى أخرى وهو يردد إرشاداته ونصائحه التي كان من الأفضل تجاهلها.

وفي زاوية بعيدة من الحديقة كان النحل يطير فرحاً بين الزهور ليمتص رحيقها بنهم. وكانت نساء المنزل الكبير يتجنبن تلك الزاوية في هذه الفترة من النهار خوفاً من غضب النحل. أما «بركا» فلم يكن يستطيع ذلك رغم الإنذارات المتلاحقة التي وجهت إليه بهذا الصدد. ولم يقتصر نشاط «بركا» على

مراقبة النحل بل كان يحاول التقاط بعضها ليحققه لاهثاً وراءه. فهمنا هو
القسم المفضل لدى السكان الأصليين. وبعث بيلا من استدعائه بعد
النداء الرابع
«لا ادري لماذا القي عليه. يبدو ان النحل لا يحاول ايقافه. لو تعرف انا في حالة
ظاعني بدون رحمة»
وتوقف بوكا عن لهوه عندما خرجت روشيل الى الشرفة وهي تصفق
عالياً وتناديه بلهجة آمرة:
«تعال هنا أيها الصبي الأسود»
رنت الكلمات مزعجة في الهواء. فتراجعت بيلا نفسها من التعليق ثالثة.
«يا إلهي الذي لم تتعجب روشيل استعمال مثل هذه التعابير. انها تجرح
احساس بوكا عندما تدعوه بالصبي الأسود. السكان الأصليون يحتقرون
بلونهم ويحطمون رقيهم»
وتجاهل بوكا النداء وكأنه لم يسمعه. نزلت روشيل الدرجات القليلة
لتقترب من بيلا
«احاول العثور على عيني. اعتقدت ان الصبي الصغير يعرف مكانها. طبعاً لن
يخبرني. كلهم يتكاتفون ضدنا»
نظرت اليها بيلا، وبحركة لا شعورية حاولت ترتيب خصلاتها الفوضوية.
لا تعرف لماذا يشعرها وجود روشيل بأنها امرأة متقدمة في السن وسيدة مهملة
لمظهرها العام.
«ماذا تريدين من عيني؟»
لوت روشيل شفتيها بأسف وامتعاض.
«كسرت اناء الزهور واعتقدت كعادتها.
«لا تقلقي روشيل. اعدها على ذلك»
قطبت روشيل حاجبيها.
«واعتقد انه يجب ان معاقبتها»

زمت بيلا شفتيها ولم تجب. والتفتت روشيل تبحث بعينيها عن بوكا.
«أين ذهب الشيطان الصغير؟»
«اسمه "بوكا"»
قاطعها كرلي بحدة وانصرفت الى ري المزروعات. لكن روشيل اصرت
على مضايقتها مجدداً.
«وهل لاسمه أهمية؟»
تدخلت بيلا بحدة فاثارت استغراب الفتاتين.
«طبعاً يا روشيل. انا اعتقد ان اللباقة لا تقتصر على فئة معينة من البشر. من
الواجب ان تكون معاملتك لبقة مع الجميع»
احست كرلي بسعادة غامرة لان بيلا اختارت الوقوف الى جانبها. اما
روشيل فتلون وجهها بحمرة الغضب. ترددت قليلاً، لكنها عادت لتهاجم
كرلي بطريقة اخرى
«اريد موافقتك يا بيلا على الطريقة التي نسقت بها الزهور. طبعاً عندما
يمضي ذلك الوقت لذلك. امضيت وقتاً طويلاً في ترتيبها، واعتقد انها ستعجبك.
فهي تختلف تماماً عن الاسلوب الفوضوي الذي يستعمله بعض الناس»
ونظرت الى كرلي بسخرية. واتخذ الموقف المتأزم منحى سوزان التي
وصلت مرحاً من الشرفة
«تعالي يا امي. لابد ان تري ماذا فعلت روشيل»
وكادت بيلا تصرخ ارتياحاً. كيف استطاعت روشيل ان تكسب كل
هذا الحب والتقدير من ابنتها؟ ربما يعود ذلك الى حاجة سوزان الى رفيقة.
وروشيل ذكية فعلاً في تعاملها معها.
اليوم شعرت بيلا بنفسها متعبة جداً. يقلقها شعور شديد يصيبها عادة
حالات الصداع التي صارت تنتابها أكثر فأكثر.
وابتسمت بيلا لكرلي وحاولت ان تشيع في عينيها كل حبها لها قبل ان
تنصرف برفقة سوزان وتتبعهما كرلي بنظراتها وهي تعض على شفتيها

الفتى روشيل: لا تقلقيها وسرواله. تلفي كماتها لا مبالاة والمتعة. ودارت
معداي منها مراراً حتى قد بعد ذلك!
وتحقق من تحريرها صحيح بوكا الذي كان يتمرّغ على العشب قريبة
منها أمس الصبي مجرّباً فحاول جهده التخلّص منها بحركات مضحكة. بعد
رحلة مدهشة كوليي عن تسليتها. وهو هذا لم يكن إلا طائراً بريّاً من نوع
الأمو الطائر أسترالي يشبه النعامة لكنه أصغر منها بقليل. لم يعرف أحد كيف
تمكّن بوكا من تحويله إلى حيوان أليف ولا كيف أصبحا من أقرب الأصدقاء.
وفعلاً تمكّن الصغير من رفع معنوياتها فتركت ضحكة وراحت
ما رأيك في رحلة يا بوكا؟
وأشرق وجهه على الفور.
طبعاً موافق يا أستاذتي. سأدلك على أمكنة عديدة رائعة حولنا.
وانطلقا معاً على ظهر سيرتينا ولم تتوقع كوليي أن تكون الرحلة من
أروع وأغرب ما قامت به حتى الآن. أخذها بوكا إلى التلال الحمراء المليئة
بالمغارات الصغيرة، والتي يعتبرها السكان الأصليون أرضهم المقدسة. عندما
كانت طفلة كانت كوليي تخاف الزرور في هذه المنطقة ليلاً. هناك شيء ما
ينبع منها يجعل الشعر يقف على رأسها. الأصليون يقولون إنها أرض الأرواح
المرّة. ويستطيع المرء أن يصدّق ذلك بسهولة. ففي الليل كانت الأضواء
تتلاعب فوق التلال وكأن شبحاً ضخماً يقوم بنقلها من مكان إلى آخر لإخافة من
تسوّل له نفسه الاقتراب من التلال السحرية. قد تكون هذه الأضواء نتيجة
بعض الظواهر الطبيعية، لكن من المخيف حقاً مشاهدتها. وكانت كوليي
سعيدة حقاً لأن الشمس كانت تشرق في تلك اللحظات كل الزوايا. واتخذت
كوليي بنصيحة بوكا. ربطت فرسها إلى شجرة قريبة وتسلقت معه التلال
سيراً على الأقدام. لكنها لم تتمالك نفسها من أن تهمس في أذنه:
ألن لا تكون هناك ثعابين سامة في الجوار يا بوكا؟
ابتسم بوكا وقادها إلى مغارة واسعة تناثرت على أرضها جثث التماسيح.

وعرفت كوليي فوراً أن هذا هو المكان الذي تُجرّ إليه التماسيح بعدما سرّية
إلى الصيادين إن قارعها بعدها شر بطونها. وعندما التفتت إليه لتزيد على ما
لعل الشعر ضاحكاً وقال إلى المغارة المجاورة. فتبعت وكاد رأسها يصطدم بالمدخل
المنخفض. وفي الداخل رأت كوليي ممراً في الصخر يؤدي إلى مغارة أخرى. وبرز
بوكا من الفتحة وساعدها لتلحق به. ولم تتمالك كوليي نفسها من التفكير
بأن تارت لا يستطيع إدخال جسمه الكبير في هذه الفتحة الصغيرة. وعندما
وصلت كوليي إلى المغارة الثانية تسمّرت دهشة. فالجدران الصخرية كانت
مزيّنة بلوحات بدائية غريبة ملوّنة بظلال الأرض. بعض الرسوم على الجدران
كانت تشخصها بشكل مخيف. عرفت أنها تمثّل الأرواح الشريرة عندما رأت
ألسنتها الحمراء تتدلّى من شفاه بيضاء. أما الأيدي والأرجل فكانت تشبه أطراف
الهياكل العظمية مع فرق واحد، هو وجود مخالب حيوانية بدل الأظافر.
وفي مواجهة هذه الأرواح الشريرة كان يقف المحاربون الشجعان الذين
يدافعون عن الحق تحت حماية الأرواح الصالحة. وعلى عرض السقف لوحة رسم
ثعبان ضخم رفع رأسه مهدداً. وقبل بوكا بفخر في أرجاء المغارة وكأنه يأتي
لوحات يعرض بضاعته على مشترٍ ثري. كان يشير إلى الرسوم ويشرح لها
معانيها بطلاقة يستغرب المرء توفرها في صبي صغير.
لأجيال عدة ساهم السكان الأصليون المحافظة على هذا المعرض الفني.
ولما مشت كوليي بصمت واحترام قرب بوكا وهو ثرثر بعد حين وقت وآخر
على الصفحات الصخرية. وبعد فترة التفتت إلى بوكا لتقول له بانفعال
واحترام.
والآن أعد كل ما قلته من البداية.
وابتسم بوكا فخوراً بذكائه العريق، وسعيداً لأن الأستاذة الشابة قدّرت
معنى الثقة التي منحها إياها عندما اصطحبها إلى الأرض المقدسة. أرض
أجداده.
فور عودتها إلى المنزل الكبير فاجأها مشهد غريب. كانت روشيل شاحبة

اللون، زائغة النظرات، تستند الى حائط المنزل، وأمامها «كولنز» جو «يحدق فيها بثبات. ما هي اللذة التي تشعها بما ترى في هذا الوضع. لا أحد يعرف! وتحركت «كولي» بسرعة توجه أوامرها الى «بوكا».

«هيا يا «بوكا» استدعي «جو الأحمد» «وبات» «خائفة، كن حذرا في تحركاتك».

كانت «كولي» تعرف جيداً أن غضب الأسد قد يكون خطراً فرفسته تعادل قوتها رفسة البغل. وأطاع «بوكا» الطلب بسرعة، فاستدعى صديقه بلهجته الوطنية، استجاب الطائر للنداء، وانقضاً بريق الخطر في عينيه وهو يلقي رأسه بدلال فوق كتف «بوكا». أسرعت «كولي» الى «روشيل» معتذرة عن مسؤولية «بوكا» وبالتالي عن الأمر.

«آسفة يا «روشيل»».

«طبعاً أنت آسفة أيتها الفتاة الخبيثة. أنت تحاولين الانتقام مني لما فعله أبي. تشترت هنا حوالى عشرين دقيقة وأنا خائفة من رفسة تصيبني في الرأس أو أسوأ من ذلك. كنت خائفة من الصراخ لطلب النجدة، حتى لا أثير حفيظة هذا الحيوان اللعين. انه يستحق القتل».

وأخذت «روشيل» تصرخ وتتوعد. أما «كولي» فأخذت تتكلم بحذر وهي تحاول المحافظة على هدوء أعصابها قدر المستطاع.

«صدقيني يا «روشيل»، أؤكد لك انك لم تكوني بخطر».

«تؤكدين ماذا أيتها اللعينة؟»

ورفعت يدها وصفعتها بقوة لم تكن «كولي» تنتظر ردة الفعل هذه. فسقطت أرضاً واصطدمت مؤخرة رأسها بالحجارة المحيطة الحوض. الأمر من «روشيل» مهدداً. أما «بوكا» فتسمر مكانه خائفاً يحدق في «كولي». كانت فاقدة الوعي لا تتحرك وقد تحول لون وجهها الى لون بلون الصحراء. ووقع عليه الأمر كالصاعقة. فأخذ يصرخ عالياً «الآنسة فارقت الحياة». وركض يائساً باتجاه المنزل الكبير برغم انه كان خائفاً من دخوله. ولما لم يجد سيده هناك، أسرع خارجاً ولم يتوقف حتى استراحت عيناه أخيراً على «دارت» «وسيمون» يعرجان

من الاسطبل. وبعد لحظات التف كل سكان المنزل الكبير حول «كولي». عندما سمعوا جميعهم عويل «بوكا» وكل «دارت» «بضربه» ينظر «كولي» و«روشيل» التي تسمرت مكانها كصغيرة، حتى تثبت وجود الأمر. «دارت» يديه فأبعد الحيوان عنها وركع على ركبتيه ليفحص «كولي» عن قرب. كانت قد استعادت وعيها، وان كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة، رفعت اليه عينيها الخضراوين تلفتها الاهتمام القلق الواضح على وجهه. فقالت بأسف قبل أن يغمى عليها مجدداً

«لا يعجبني استقلاله»

لم تشعر «روشيل» في حياتها بالحرج الذي كان يرافقها في تلك اللحظة اطلقت في دفاع مستميت عن نفسها وهي تمد يدها الى «سوزان» طلباً للنجدة، وأخفت وجهها أمامها.

«انه الأمر الذي أخافني وسمرني في مكاني لأكثر من نصف ساعة. لم يتحرك حتى جاءت «كولي» و«بوكا». صحيح انها صرفته بعيداً عني، لكنها كانت قليلة الأدب معي. كنت مضطربة لدرجة لم أعرف معها ماذا حصل بعد ذلك».

ووضعت يديها على وجهها وانفجرت في بكاء عنيف. لكن أحداً لم يهتم بها. يا لـ«كولي» المسكينة، كيف كان بامكانها أن تنبأ بانها ستسقط أرضاً وتصدم رأسها بحجر. يا له من موقف مزعج.

مرّر «دارت» أصابعه في الخصلات الذهبية بحثاً عن أي ورم تكون قد تركته الصدمة. فوجد جرحاً صغيراً لا أهمية له. حملها بين ذراعيه وسار بها الى المنزل، وقطعت «بيلا» الصمت لتطمئنهم جميعاً.

«لا تخافوا مجرد رضوض بسيطة. سأتصل بالطبيب المتجول لأسأله عما يجب علي فعله في هذه الحالة، سأطمئن أكثر بعد ذلك».

وتبعوا جميعهم «دارت» حتى دخل الى داخل المنزل.

عندما عادت «كولي» الى وعيها، شعرت بألم بسيط في أعلى جبينها المتورم. تدريجياً ليضع ضمادة على جبينها. وفي لحظة استرجعت كل تفاصيل الحادث

رفعت رأسها بعد ان رأت «دارت» تدخل من الباب ووراءه «بيلا» تبدو مبتهجة
لكن سرعان ما اشرق وجهها عندما رأت «كرلي» جالسة في فراشها.
«استيقظت يا ابنتي العزيزة! هل تشعرين بتحسن؟ يبدو عليك ذلك.»
«نعم انا أحسن بكثير. شكراً لك يا عمتي «بيلا».»
وانتبهت «كرلي» للمرة الاولى انها ترتدي قميص نومها البرتقالي المفضل
لدى فتحة [illegible] فعرفت [illegible] اقترب «دارت» من الجهة اليسرى
من سريرها وفي يده حبتين صغيرتين وطلب منها ان تبتلعهما.
«حبا الهي [illegible].»
«وما هذا؟»
«لا تسأليني. اسألي الطبيب.»
[illegible] «بيلا» [illegible] الاجواء.
«هذه الحبوب [illegible] يا «كرلي». ولا ادري ما هي.»
وسأل «دارت» «كرلي» ساخراً
«هل انت مطمئنة الآن؟»
فضحكت «كرلي» وتناولت الحبتين.
«لا، لكني لا ابالي. اعتقد ان الطبيب يفهم اكثر مني في هذه الامور.»
فكغيرها، ككل المزارع في هذه المنطقة النائية كانت مجهزة بمختلف انواع
الادوية. وكانت الوصفات الطبية تتم هاتفياً، بواسطة ارقام معينة تلصق
بالدواء، فيعطي الطبيب رقم الدواء الواجب استعماله في حال لم يتمكن من
الوصول الى مريضه في الوقت المناسب. وقد برهنت هذه الطريقة عن نجاح
اكيد.
اطلت «بيلا» [illegible] الرسالة وراء ظهر «كرلي».
«مبروكا جاء لزيارتك منذ دقائق قليلة. كان الطفل المسكين مضطرباً. انه يحبك
كثيراً يا كرلي. سأدعه بعد قليل يراك. لم يصدق بعد انك بخير.»
وتناولنا [illegible] «بيلا» الى «دارت» الذي ظل صامتاً يتفحص

وجه «كرلي» الشاحب.
«اعتقد انك تريد التحدث مع «كرلي» يا «دارت». سأترككما معاً وسأرسل لك
عشاء. طبعاً يا «كرلي». لا تحاولي النهوض من فراشك.»
وخرجت واغلقت الباب قبل ان تعلق «كرلي» بكلمة واحدة. ارغمها «دارت»
على الاسترخاء في فراشها وجلس الى جانبها [illegible]
«حسناً يا «دارت». ما الامر هذه المرة؟ [illegible]»
«اخبريني ما حصل. سمعت رواية «روشيل» و«ترنر» و«بوكا» وانا الآن بانتظار ما
ستقولينه.»
«وهل ستصدقني يا «دارت» [illegible]؟»
«ربما.»
«لا أعرف من أين ابدأ.»
«من البداية.»
انتفضت «كرلي» [illegible] يعرف كم يخفق قلبها في هذه اللحظة انها
[illegible] قبل ان تتمنع [illegible] احياناً [illegible]
«دارت» [illegible].
«من حسن حظي اني اخذت اجازة اليوم. هل علي ان انتظر النهار بطوله كي
اسمع منك جميع كلماتك؟»
«الامر ليس بهذه الاهمية يا دارت. كانت «روشيل» خائفة [illegible] معها
نفسها في اول وجه رأته. وصادف اني كنت ذاك الشخص. انا آسفة جداً لانك
لم تكن انت مكاني.»
«ألم تسخري منها [illegible] طبعك الساخر؟»
«لا. طلبت منها ان تهدأ فقط وأؤكد لك اني كنت آسفة جداً لما حصل لها. لكني
لم اعد آسفة الآن. [illegible]»
«[illegible]»
«[illegible]»

- لا. لكن الأمر يختلف معي.

وضحك عالياً فأغلقت «كولي» عينيها ثانية. لا تدري ما بها. إنها مضطربة جداً. لا بد أنه أثر الضربة. وأحست «كولي» بقبلة رقيقة على وجهها فارتجفت بعنف لملمس شفتيه.

- آه يا «مارك». لماذا تفعل ذلك؟

ابتسم ساخراً بإعجاب.

- لو كنت أعلم أنك ستصرخين هكذا لما قبلتك. سأتركك الآن لترتاحي. سأعود لأراك لاحقاً.

وقبل أن يخرج من الغرفة، توقف قليلاً عند الباب ليقول لها:

- صديقتك العزيزة كما تسمينها يا «كولي» عادت إلى منزلها. طلبت من «ستيفن» مرافقتها. كانت منزعجة جداً، وكذلك «بيلا». أنا من السعداء.

تملكها ذكرها بالهم «موريس». فأغرقت في الضحك.

٩ ـ المطاردة

حلّ الصيف كل لونه لتغزو الأرض موجة من الحر الشديد. القطيع بعظمه نُقل إلى المراعي «أوبلايب» ليباع هناك قبل أن تبخر الحرارة لحمه وشحمه. فأشهر الصيف في المناطق الداخلية من القارة «الأسترالية» تفرض قسوتها على الإنسان والحيوان معاً. وإذا كان على الرجال نقل ما تبقى من القطيع من المناطق التي جفت مياهها إلى واحات أخرى، وذلك في الساعات الصعبة الملتهبة بالإرهاق والعطش.

وكان الرجال ينطلقون من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل. في ساعات الظهر كانوا يطلبون الغدران الكبيرة وينتظرون الظل وتسهيل الكلفة لنقل الأبقار ومجيئها.

ومع مرور الأيام استقرت تماماً البيت الكبير في نظام روتيني يومي. ويمضي ساعات النهار بين الأهوج يشدون المنزل، والاعتناء بالحديقة، والإشراف على الدكان التجاري الخاص بالعمال. وتولت «كولي» و «سوزان» مهمة تحرير الدكان الصغير عوضاً عن «مايك» الذي استغرقه عمله اليومي الشاق.

كانت الفتاتان منشغلتين تماماً في ترتيب دفعة البضائع الجديدة التي جلبها الطيار الشاب «بوب هافلوك» وكان لا بد من تسجيل كل شيء في الدفاتر الثابتة، والمواد الغذائية، ومستحضرات الغسيل، والكتب، والأسطوانات. وتوقفت «كولي» ضاحكة أمام مجموعة القمصان التي جلبها العمال. فهم كمعظم الناس الملونين يحبون الألوان الصارخة. وكلما كان اللون فاقعاً كلما كان الإقبال عليه

كي يبقى اللون الأحمر القاني هو الأكثر شعبية، ويليه البرتقالي. وصحيح أن فستان الحقل والسراويل الكاكية كانت تحافظ على الزرقة وتزين الحقول بجمال، إلا أنهم يفضلون النوع الأكثر ترفاً الذي يحصلون عليه من دكان القرية. وعشقت كوني الرقة والفعالية والسرعة التي تعمل بها سوزان. فهي تتصرف في المنزل عكس ذلك تماماً.

وكأن سوزان أحست بما يجول في خاطر كوني، فرفعت رأسها متحمسة:

«كنت أحلم دائماً بأن أصبح ممرضة.»

«وما الذي منعك من تحقيق هذه الأمنية؟»

«لا أملك المال الكافي لذلك. ومن جهة أخرى لا أستطيع أن أترك أمي وحدها هنا. إنها ليست مزارعة رغم أنها تحاول جهدها لتكون كذلك.»

ورفعت سوزان يدها منفعلة كأنها تريد أن تطرد هذه الأمنية من رأسها:

«ما فائدة الحديث عن كل هذا. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً.»

«بل تستطيعين أن تفعلي الكثير. لم يفت الأوان بعد. هل تكلمت مع دارت بهذا الشأن؟»

«دارت؟ ... إلهي. طبعاً لا. أريد أن أبوح لك بسر يا كوني. كنت أخاف جداً من زوج أمي، وكذلك ستيفن وهو من ذلك ما زال يلازمني عندما أتحدث إلى دارت. إنه ابن العم ستيفنس.»

ولم تصدق كوني ما سمعت.

«أنت يا سوزان، كيف يمكنك النظر إلى دارت هكذا؟ إنه يختلف عن العم ستيفنس. دارت إنسان بكل معنى الكلمة.»

«أعلم. لم تفهمي قصدي جيداً. زوج أمي كان أيضاً طيباً في معاملتنا لكن على طريقته الخاصة. وفي الحقيقة حاول جهده أن يكسب ثقتنا. لكننا كأولاد الذين كنا نشعر بالخجل ونعدم الثقة بالنفس. لم يستطع العم ستيفنس أن يفهمنا. أما بالنسبة إلى دارت فالأمر مختلف أعترف بذلك. لكن عليك أن تعترفي أنت أيضاً أن لدارت شخصية قوية أجد معها صعوبة في أن أطلب منه أي شيء.

حين أتكلم معه أشعر أني أجيب بخجل وخوف.»

وتنهدت سوزان ثم تابعت بشيء من الخجل:

«أعتقد أنك تعرفين أننا لا نملك مالاً خاصاً بنا. لكننا لسنا بحاجة إليه في أي وقت. دارت يتكفل بكل أمورنا.»

«ما المشكلة إذن؟»

«لن تفهمي يا عزيزتي كوني. أنت لم تسمعي ما قلته. أريد أن أصبح ممرضة والأيام تمر بسرعة. لم أعد صغيرة. أنا في الثالثة عشرة أي في تجاوزت السن المطلوبة للسنة الدراسية الأولى.»

ونظرت إلى كوني بإعجاب قبل أن تكمل حديثها:

«والحياة التي تعيشينها شديدة الإثارة يا كوني، ولا يستطيع تحملها إلا الأقوياء. أنت جزء من هذه الأرض وتنتمين إليها بكل جوارحك. على المرء أن يكون أعمى كي لا يرى ذلك. صحيح أنك كنت جاهلة جداً عندما جئت إلى هنا لكنك الآن أكثر ثقة. وكأن الطبيعة رحبت بعودتك إلى أحضانها بأن سكبت عليك كل أسرارها وبقيتها هذه البلاد بصورتها وسحبها الخيالي. ومساحاتها الشاسعة، لا ترحم إلا الرجال الذين يوازونها صلابة. أنا لم أخلق لها. وكذلك والدتي رغم أنها تدعي العكس. أما ستيفن فيعيش هنا أسعد أيام حياته.»

«ربما كنت على حق يا سوزان. لكني لا أرى سبباً يدعوك إلى تحمل كل هذا.»

وترددت قليلاً قبل أن تتابع قائلة:

«هل تسمحين لي أن أكلم دارت بهذا الشأن؟ لا يمكن أن تتوقعي منه أن يكون قادراً على قراءة الأفكار. أنا متأكدة أنه لن يقف في طريقك. بل أنا واثقة أنه سيساعدك حتماً.»

«حسناً يا كوني. تكلمي معه إذا كنت ترين ذلك مناسباً. لكن ريثما ذلك ...»

وتوقفت فجأة عن الكلام. فأسرعت كوني لمساعدتها:

«شكراً! ريثما ...» قالت مبتهجة.

«انسي الموضوع يا «كولي». لا يهم ما قالته. وبشكل، اعتقد بأني سأكون فرصة لتنازله»

«لا شك في ذلك. اتركي الأمر لي. سأتحدث الى «دارت» في اقرب فرصة ممكنة»

ودخل «بن» عليهما في تلك اللحظة ورفع قبعته عن رأسه ليحييهما باحترام.

«صباح الخير. آسف لاني قطعت عليكما الحديث. اعذراني دقيقة واحدة وسأخرج»

وتوجه فوراً الى الغرفة الخلفية ليعود بعد قليل حاملاً بندقية من عيار ٢٢.

احنى لهما رأسه بسرعة وهرول خارجاً.

رفعت «سوزان» كتفيها باشمئزاز

«اعتقد انه ذاهب لتنفيذ عملية قتل جديدة»

«نحن بحاجة الى اللحم يا «سوزان». «بن» يستطيع ان يقتل العجلة بطلقة واحدة. انها طبيعة الحياة هنا. ولا يستطيع المرء ان يكون شديد الحساسية في هذه الامور والا مات جوعاً»

«اعلم يا «كولي». ولا استطيع الاعتياد. اني احب ان اكون نباتية»

والقت «سوزان» نظرة اخيرة على الغرفة الواسعة.

«اعتقد انك انتهيت من ترتيب الشحنة الجديدة. أليس كذلك يا «كولي»؟»

«نعم»

تمتمت «كولي» بشرود. ذهنها كان منشغلاً الآن بما ستقوله لـ«دارت». اغلقت «سوزان» الدكان وعادت الفتاتان الى المنزل.

انتظرت «كولي» نهاية الاسبوع قبل ان تحدث «دارت» بشأن «سوزان». ارادت ان تنتهز اول فرصة يعود فيها باكراً الى المنزل لتقضيا امسية هادئة. وما كاد «دارت» يفعل ذلك حتى لحقت به الى الشرفة تحمل له كوباً من الشراب المنعش. مناورتها الطفولية هذه، اكتشفها «دارت» بسرعة؟

«حسناً يا «كولي». ما هو طلبك هذه المرة؟»

«كيف عرفت؟»

نظرت اليها ضاحكة وهي تقول مداعبة

«هيا يا عزيزتي. اطلقي تساؤلك»

وتمتمت «كولي»: «ربما عندما تسمعه ستلومني يا عزيزتي». لكنها تمالكت نفسها بسرعة.

«الامر يتعلق بسوزان»

وبرقت في عينيه الواسعتين لمحة اهتمام سرعان ما انطفأت.

«هلا تكلمت يا صغيرتي. ليس من عادتك التلعثم في الكلام»

«سوزان تريد ان تصبح ممرضة. ومن حقها ان يفسح لها المجال لتحقيق طموحها طبعاً»

«انت موافق اذن»

ولم تصدق «كولي» انها فازت بهذه السرعة. فرفعت رأسها تتفحص وجهه لطمأنتها اكثر.

«طبعاً يا عزيزتي اوافق. هل كنت تظنين عكس ذلك؟»

وامسك بذراعها بقوة، بعدما توقفت نظراته لحظات طويلة على شعرها الذهبية.

«تعالي معي. لنقوم بنزهة قصيرة يا صغيرتي»

وكانت «كولي» تضحك عالياً وهي تسير بجانبه الصغيرة في لفتته. معوله ما كانت امراً اكثر منها دعوة نزهة.

وتعلقت عيناها بثنيات الطريق. وشعرت بالنسيم يلفحها وهي تفكر بهذه العلاقة الجديدة بينهما.

«دارت» آه «دارت»، واعتصر قلبها ألماً.

سارا بصمت. لم يرد احد منهما ان يعكر سكون تلك الامسية الرائعة. في ضوء القمر بدت التلال قريبة لدرجة يشعر معها المرء وكأنه يستطيع ان يمد يده ليلمسها. كان الهواء عابقاً بأريج الزهور، ومن البعيد تناهت اليها غنية طائرة الهواء، وهمهمة الماشية المنتشرة على التلال.

واحست «كولي» براحة عميقة. فتنهدت عالياً. واراح «دارت» يده على

كتفها وهو يقول بحب وفخر:
«إنها أرض رائعة يا كولين».
ابتسمت له، وانعكس في عينيها شعاع القمر.
«إنها أرض للرجال فقط الذين كانوا مثلك يا دارت».
«أنا أحاول أن أجعلها صالحة للنساء أيضاً. الرجل قد يقوم بأي شيء عندما يجد المرأة المناسبة. والمرأة ربما ستحاول أن تتغلب على الشعور الطاغي بالوحدة من أجل الرجل الذي تحب. وبعض النساء لا يشعرن بها على الإطلاق».
ونظر إليها بحنان، لكنه سارع إلى تغيير الموضوع عندما أحس أنه سيضعف أمام هذه الطفلة التي كبرت بسرعة.
«الآن، ماذا كنت تريدين أن أفعل بشأن سوزان؟ لماذا لم تكلمني هي بنفسها في هذا الشأن؟»
«أعتقد أنها لم ترد إزعاجك. استغرقك العمل كثيراً في الأسابيع القليلة الماضية. أما أنا فعرفت بالصدفة أنها تحلم بأن تصبح ممرضة. هذا كل شيء. أعتقد أنها تريد أن تبدأ الدراسة في أقرب فرصة ممكنة. إنها ليست مزارعة. الناس لا يستطيعون كلهم تحمل هذه الحياة القاسية. ألم تشعر بذلك يا دارت؟»
«لا يبدو لي أنك تواجهين أي مشاكل هنا».
ردت بعفوية، وكأنها تريد أن تعبر دفعة واحدة عن كل ما تحمله من حب للأرض هنا.
«حبها يجري في عروقي. عرفتها طفلة فتعلقت بها لم أنسها أبداً. كنت دائماً أحلم باليوم الذي أعود فيه إلى كنغارا».
مرر دارت أصابعه في خصلاتها النارية، ثم رفع وجهها إليه. فأحست كولين وكأن تياراً كهربائياً يسري في جسمها. جمدت في مكانها غير قادرة على القيام بأي حركة. وفضح وجهها المشرق اضطرابها. أما دارت فلم يظهر عليه أي انفعال. أحاط كتفيها بذراعه وتابعا السير. ومرة ثانية غيّر مجرى الحديث ليعود به إلى سوزان.

«ما سأقوله لك الآن لا يعرف به أحد إلا ستيلا. وأنا أرجو أن تنتبهي على الكلام يا كولين. لقد خصصت لسوزان وستيفن سلفاً مبلغاً خصوصياً من المال لا يستطيعان التصرف به إلا عندما يبلغان الخامسة والعشرين من العمر. حدث ذلك لأني أؤمن بأن المال الذي يأتي بسهولة يزول من بين أيدينا ويذهب بسرعة. لم أرد أن يعرف ستيفن وسوزان بالأمر إلا في الوقت المناسب. ستيفن يعمل الآن بجد ليبني مستقبله. إنه شاب طيب وعاقل. أما بالنسبة إلى سوزان فالوضع مختلف. لم تستطع أن تتأقلم مع هذه الحياة القاسية. لا بد أن ستيلا شعرت بذلك. لكنها كعادتها لم تقل شيئاً. تريد سوزان أن تصبح ممرضة؟ حسناً. سأعطيها المبلغ اللازم لذلك وسأؤمن لها مكاناً للإقامة في المدينة تعيش فيه أيام الأسبوع، وتمضي عطلتها الأسبوعية معنا. شرطي الوحيد أن تسكن سوزان في ... قرب أقارب هناك يسهرون عليها».
وهتفت كولين بسعادة:
«كم أنا سعيدة لأنك وافقت يا دارت. كنت أعلم أنك لن ترفض».
«وهل كان هناك سبب يمنعني من الموافقة؟ لا يمكنك أن تتصوري مدى فرحي لرؤية فتاة شابة. كل ما لاحظته على سوزان أنها تميل إلى السوداوية والكآبة. ربما ستتغير الآن. في أي حال سأكلمها قريباً عن موافقتي هذه. أما أنت يا آنسة كيري؟»
ونظرت إليه كولين وفي عينيها ثقة كاملة وصريحة.
«نعم يا دارت».
ولم تستطع أن تبعد نظرها عنه. كانت معجبة جداً بالتعبير في وجهه الشاب وكأن القمر غيّره قليلاً من ذلك.
«هل تحاولين جعلي مثلاً طيعاً حول أصبعك يا كولين؟»
ولمعت عيناها بشقاوة فيها مزيج من الطفولة والأنوثة المتفتحة.
«لا أدري. هذا أمر لم يخطر ببالي قبلاً. وهل أستطيع أن أفعل ذلك؟
وكيف؟»
كان صوت دارت حاداً وفيه الكثير من الدعابة اللطيفة أحست كولين

انها غير قادرة على تحمل نظراته. حتى الفؤاد بدا عملاً يجري جديداً ضغطت على اعصابها.

وطغى على صوت خفقان قلب كوليي رغم حوافر حصان يقترب منها بسرعة. وتغير وجه دارت وهو يلتفت باتجاه الفارس.

«لا بد انه واحد من العمال. ثمة شيء ما حدث».

ووقفا بصمت ينتظران ان يقترب منهما الفارس كي يتبينا هويته.

«انه ستيفن».

وبعد ثوان كان يقفز عن جواده وهو يلهث بسرعة.

«دارت، ديغو هجم مجدداً قبل قليل وعند مابك بقايا عجلين صغيرين افترسهما ديغو بوحشية».

وتجهم دارت بعنف.

«حسناً، هذا امر ما سنسمعه عن هذا الحيوان المتعطش للدماء. سأجمع فريقاً من الرجال للبحث عنه. علينا ان نقتل ديغو قبل ان يقضي على كل من رفاقنا».

وتصبب العرق من جبين ستيفن.

«لا، فقط مابك وبعض العمال الصغار».

«ابحث عن بن. سأنتظركما امام المنزل الكبير. سأرافقكما للحد من اعتداءات هذا الحيوان المفترس. تكفي المرات العديدة التي تمكن فيها من الافلات».

واسرع دارت باتجاه المنزل، فركضت كوليي لتلحق به.

«دارت، ارجوك دعني ارافقك».

«لا».

«لماذا بحق؟» فاصرت بعصبية.

«لن اضايقك. ارجوك يا دارت سأساعدك الا تثق بي؟»

توقف فجأة وعندما نظر الى وجهها الصغير الغاضب، ابتسم مرغماً فعرفت بغريزتها الانثوية انها انتصرت عليه.

«عليها ان تبقى بقربك يا كوليي. حسناً تستطيعين مرافقتي. والله وحده يعلم لماذا وافقت على هذا الامر».

وتضايق دارت من ضعف القلب لكنها اسرعت قبل ان يغير رأيه.

«شكراً عزيزي دارت. سأذهب فوراً لابلغ العمة بيلا».

وطارت كوليي بخفة الفراشات ولم تتوقف الا حين بلغت المنزل. كانت بيلا وسوزان في غرفة الجلوس تطالعان بعض المجلات. ورفعت بيلا رأسها بقلق.

«ما بك يا كوليي ماذا حدث؟»

«ديغو هاجم القطيع مرة اخرى. سيخرج دارت للاحقته، وانا ايضاً».

«هل وافق دارت على ذلك؟»

وبدا القلق واضحاً على وجه بيلا. صحيح ان لكوليي ارادة حديدية لكنها لم تستطع ابداً ان تسيطر على دارت الذي كان يحرص دائماً على حماية ومراقبة ابنة عمه.

«نعم دارت وافق. ليست هذه المرة الاولى التي اخرج فيها لصيد ذئب الديغو لكنني كنت اظن انها ستكون الاخيرة».

وهمست كوليي في اذن سوزان.

«اعتقد ان ما كنت تريدينه سيتحقق قريباً. انتظري قليلاً وستربحين بقصدك».

وسمعت كوليي صوت دارت يناديها بلهجة آمرة. فطارت اليه حتى لا تغضبه. حركة غاضبة واحدة وسيأمرها بالبقاء في المنزل. كان الرجال الثلاثة بانتظارها تقدمت على فرسها بجوار الفارسة المحترفة. فصفر ستيفن اعجاباً قبل ان يطلق ضاحكاً:

«يسعدني حقاً ان التقيك مرة اخرى يا آنسة كوليي».

فاجابه دارت بحدة قبل ان ينطلق بجواده:

«انها مخطوبة فعلاً لا تنسَ هذا».

وتحركت كوليي وراء الرجال تستمع الى احاديثهم عن ديغو الذئب المتوحش

العروف بقرنه ومكره. كان يشن هجمات مزعجة في شتى أنحاء المنطقة تاركاً وراءه أثراً واضحاً من العجول الميتة، ويقال إنه حاول أكثر من مرة قتل الرجل الذي يقف في طريقه. أحد العمال تمكن من إصابته برصاصة واحدة عند مجيئه الأخير. لكن الذئب استطاع الفرار وجاء إلى التلال ليسترجع قواه حتى من أعرف بأنه من المستحيل تقريباً القضاء على هذا الوحش البري نظراً لجرأته وسرعة تحركه.

وبعد خمس وثلاثين دقيقة وصلوا إلى المخيم وعلاه الغبار الذي انتشر حوله القطيع يوحي باستقرار. نهض مايك من مكانه واقترب منهم مرحباً: شكراً من تحديد مكانه عدة مرات. لكننا لم نتمكن من القضاء عليه. صوت الرصاص سيخيف القطيع، فلا نعود نستطيع السيطرة عليه.

ترجل دارت عن جواده وساعد كرلي على النزول عن فرسها.

وقال: فلاقي نحن الآن بينه وبين فريسته. أي أن هذا لمصلحتنا. سنحاول أن نقضي عليه من كافة الاتجاهات قبل بزوغ الفجر.

كان مايك ينظر إلى كرلي وكأنه لا يصدق وجودها بينهم. لاحظ دارت التعبير الذي ارتسم ظاهراً في عينيه فابتسم ساخراً:

- أعرف. أنا نفسي أكاد لا أصدق أني وافقت على اصطحابها معي.

وأجابت كرلي عن نفسها فوراً:

- وأنا صيادة ماهرة يا مايك.

وهب بن إلى نجدتها:

- نعم هي كذلك إلا إذا استفزها.

- سأقول لن تتمكني الصمود من وجبة كهذه في رحلتك الوحيدة يا عزيزتي وحتى أتأكد من أنه لن يصيبك مكروه، سأطلب بقاء بن وستيفن. اذهبي أنت برفقة مايك. سأعود بعد قليل أريد أن أتكلم قليلاً مع الرجال.

وتوجه دارت إلى العمال، ليلقي الأوامر عليهم. وبعد ساعة تقريباً سمع الجميع صوت رصاصة يشق سكون الليل. وبحث عن دارت بشيبة عنيفة.

- يا إلهي لا بد أنه ستيفن. لن أستطيع أبداً أن أعمل معه راعياً مرة أخرى.

وفجأة أحست الثقيل صوت بن يقول عالياً:

- القطيع.

وسمعوا كلهم صوت الحيوانات التي أخافها صوت الرصاص فبدأت تركض كسرب طائر يجرف كل شيء في طريقه. ونظر دارت إلى جسم ابنة عمه الرقيق:

- يا إلهي كيف وافقت على مجيئك معنا.

- لا تخف. أنا لست لعبة من زجاج.

ومن مكان قريب ارتفع صوت مايك صارخاً:

- ستيفن لا تطلق رصاصة ثانية. أين أنت... القطيع!

جاء الإنذار متأخراً. فالقطيع كان يعدو وراء قائده والعرق يتصبب منه خوفاً ورعباً.

وأحس ستيفن الخطأ الذي ارتكبه. رأى ديفو فأطلق رصاصة القتل. لكنه نسي تماماً وجود القطيع في حمى المطاردة. وتصبب العرق البارد من جبينه. إنه لن يصبح أبداً راعياً للبقر ولو عاش مليون سنة من التدريب. دارت سيقتله لفعلته هذه. ها هو يراه الآن على صهوة جواده يمر أمام الثور القائد ويطلق الرصاص في الهواء والرجال على الجوانب يلوحون بسياطهم في الهواء. وأخيراً تمكن دارت من إيقاف الثور القائد عن الجري وإرجاعه إلى مكانه على بعد أميال قليلة من المخيم.

اقترب مايك والعمال من القطيع الذي كان ما يزال يرتجف خوفاً، وحاولوا تهدئته بأصواتهم الآمرة.

- وانتهى الأمر. الحمد لله.

صرخت كرلي. لم تعد تستطيع أن تلعب دور الفتاة الهادئة المتماسكة لأعصابها. ما زال ذهنها مشغولاً بصورة دارت منقضاً على القطيع الهائج. الخطر كان كبيراً. خطأ واحد ويستطيع أن يجر القطيع بأكمله بحركة واحدة.

وبعد لحظات غضب ستيفن شاحب اللون، وقد طأطأ رأسه أرضاً وقف

صامتاً امام دارت الذي ترجل عن جواده وهو يتقدم ببطء. ربما القرار شكلا بالتوتر وسط الصمت لطول لحظات وكأنها ساعات. واخيراً قطع دارت السكون ليقول بحدة:
- اعتقد انك تعلمت الدرس جيداً يا ابني. انا لن اقول لك اكثر من هذا.
واعترض ستيفن فوراً:
- اصرخ يا دارت. ارجوك ابني. انا استحق ذلك. هيا اضربني. كم اي شيء ارجوك. انا استحق العقاب.
- لا داع لذلك يا ستيفن. علينا ان نستعد لشيء الغارة. سنحرسه عند بزوغ القمر وسنتناوب الحراسة طوال الليل.
ورفع دارت يده على كتف كرلي يربتها لانه احس بأن جسمها ما زال يرتعش توتراً. وارتفع صوت مايك:
- سأقوم انا بنوبة الحراسة الاولى.
فاستراح الجميع بانتظار الصباح.
لاحظهم الفجر وهم يشقون طريقهم وسط التلال بحثاً عن دينفر. وما ان حلت الساعة الثالثة صباحاً تقريباً وانطلقوا فوراً في اثره. كان الرجل العجوز يترجل عن جواده بين الحين والآخر ليلاحظ الآثار التي تركها الحيوان على الارض الندية.
ارتفعت الشمس تدريجياً في السماء، حتى صارت تحرق ظهورهم باشعتها اللاذعة كمثل. دارت وبين المجموعة، يحملان بندقيتيهما من نوع ونشستر وستيفن يلازما كرلي، واحد الى جنبها والآخر الى يسارها، ليدافعا عنها في حال حدوث اي خطر مفاجئ. كان دينفر في مكان قريب، يتسلق معهم في رحلة البحث هذه. مرات عديدة تمكن من الافلات من قبضتهم بمكر وحنكة. كان يختار فريسته في اراض وعرة، بحيث تصبح ملاحقته شبه مستحيلة. وعلى طرف منطقة التلال الرملية شاهدوا للمرة الاولى ما له من حيوان ضخم، قوي العضلات. انه يجوب الانسان تقريباً، لونه الاصفر البراق، والنقاط السوداء على

جمجمته تضخما مكانه.
انطلق بن على جواده بأقصى سرعة وتبعه دارت بندقيته وعضلاته الاسود بساقي الريح. تردد طلقة دارت قريبة في سكون الطبيعة فخر الحيوان صريعاً من الرصاصة الاولى. وعندما وصل اليه دارت وجده جثة هامدة.
وانتظرت المجموعة في مكانها برهة دارت الذي ذهب برفقة بن للبحث عن لوريا انثى دينفر التي عرفها السكان الاصليون منذ عرفوا دينفر. ففي مملكة الحيوان، كان دينفر من الفصائل النادرة التي تلازم اليفها طوال العمر. وفي حال ماتت قبله لا يتخذ شريكة اخرى ابداً. الوفاء والذكاء هي كلها من ابرز صفات هذا الحيوان. وتمكنت لوريا من الفرار واختفت في احدى التلال. الطيور وحدها كانت تعرف مكانها لكنها رفضت الافصاح عنه.
ونظر دارت الى بن:
- اعتقد انك اليوم اصطدنا هذا اليوم، انتهى كابوسنا.
لم يكن وجه العجوز يعبر عن اي انفعال.
- نعم. سنستريح قليلا ثم نحاول ملاحقة لوريا.
واشار بيده الى احدى التلال.
- من الصعب علينا ان نبقى هنا دون ذكرها الذي كان يرعى هذا القطيع والمراعي.
- فلنعد الى المزرعة اذن.
انتهى امر دينفر وهم مسرورون جداً لذلك. بقي عليه ان ينتظر ليعرف لوريا هل ستهاجم القطيع وحدها ستبين ذلك. ونظروا الى المجموعة المنتظرة بصمت.
فسأل ستيفن مكتوم:
- هل علينا ان نقتل لوريا؟
- لا. يكفي اننا قتلنا اليوم من الفصائل على دينفر. لوريا حتى الآن لم تشكل خطراً على القطيع. وانا سننتظر رؤية فعلها قبل القيام بأي عمل.
ولاحظ دارت انفعال كرلي وتأثرها

بالقرية الزلقت. أخيراً "كرلي" سيبتعد "ستيفن" الى المنزل. انت تحس ستذهب الى الزريبة. اشعر بحاجة قوية الى فنجان قهوة. ما رأيك "مايك"؟

سأحضر القهوة بنفسي.

والتفت الى "كرلي":

ما رأيك يا آنسة "كرلي" بمشاركتنا؟

احست "كرلي" ان "مايك" كان يراقبها طوال النهار بنظرات فيها معان اكثر من الاهتمام العابر بابنة عم الرئيس.

ولم تكن منكم دعوة رسمية بهذا الشأن؟

ضحك "مايك" عالياً والتفت الى "دارت" يطلب موافقته.

حسناً يا "كرلي" تستطيعين مرافقتنا شرط ان تحضري انت بنفسك القهوة لنا.

اوافق على شرطك.

وشكرت "كرلي" "مايك" بابتسامة رقيقة، ونظر "دارت" بحيرة منهما وهو يلوي فمه بسخرية. ابنة عمه الصغيرة تعبر اليوم برقة الزهور. كم هي جميلة ومشرقة لن يكون "مايك" بشراً اذا لم يلاحظ ذلك.

وقطب "دارت" حاجبيه وهم في طريق عودتهم الى الزريبة.

١٠ ـ العاصفة

قبل اسبوعين من حلول عيد رأس السنة رافق "دارت" سوزان وبيللا الى ويستان لتشرف على الترتيبات النهائية بشأن اقامة مراسم. "سوزان" لم يتأخر بالوفاء بوعده، بل ثالث بعد ايام قليلة مسحور تعويذته الساحرة. وساعدها على الافصاح عن رغباتها وطموحها بانطلاق وصراحة. وعندما احست "سوزان" ان حلمها سيتحقق اخيراً، تغيرت تماماً وكأن عصا سحرية حولتها فجأة الى امرأة ناضجة. اختفى كل اثر لاجابتها التنبؤة وصارت اكثر اتزاناً ومرحاً. اما "بيللا" فشعرت براحة عميقة. كانت السنة الفائتة من السنوات العصيبة في حياة ابنتها حين بسبب "دارت" ووجدتها في جوانبهم الخاصة المستقلة. سيقبل العرض الذي قدمه لها "دارت"، وهو كناية عن شقة فخمة في اي مدينة تختارها "ابيلايد" وربما لها هناك الكثير من الاصدقاء، وخاصة صديقتها العزيزة "ليليا".

غادروا جميعاً المنزل من أوائل الاسبوع. ولن يعود "دارت" و"بيللا" قبل نهايته. وقتها استطاعت "كرلي" الشابة التمتع بحريتها لم تستطع لم يحاول "ستيفن" او "مايك" الحد من شرعها الدائم في مختلف ارجاء المنطقة. فسيارة "ستيفن" القديمة بدأت بالشلل، واهانتها "كرلي" تماماً لا شعورياً او بوعي تام. لم تكن الشابة تعرف الا سبيلاً واحداً. وربما انه لم يكن هناك في تلك اللحظة لتاريس قلبه عليها. كانت تتصرف كما يحلو لها. لم يكن يتركها تغيب عن عينيه لحظة واحدة.

الأمسيات كانت تمر في جو شديد المرح. كان سيمون ومايك يتسابقان لابتداع المضحكات منها السخيفة. إنما الشرفة على شؤون المنزل. وزوجها كانا يناديان في المنزل الكبير في غياب بيلا. وغالباً ما يتناولان العشاء مع المجموعة في جو بعيد عن الرسمية.

وفي اليوم الثالث زال الصحو وذلك لدى توقف سيارة روشيل الفخمة أمام باب المنزل الكبير. كانت كارلي تستعد للخروج لنزهتها الصباحية على صهوة فرسها ومعها بركا. التصميم على تنفيذ أوامر سيد بالسهر على الآنسة الشابة. ولدى خروجها إلى الشرفة رأت كارلي روشيل تترجل من سيارتها وهي في قمة أناقتها وجاذبيتها. توجهت روشيل فوراً إلى المنزل وتجاهلت تحية بركا الصباحية لتخاطب كارلي ببرودة ولا مبالاة:

- هل أنت خارجة؟

وأمسكت كارلي لجامها بقوة بين أصابعها.

- لا. ليس الآن يا روشيل. تفضلي. سأقدم لك شراباً بارداً.

وصعدت روشيل الدرجات القليلة لتلحق بكارلي إلى غرفة الجلوس.

- هل وصل دارت بعد إلى المدينة؟

- طبعاً توجهوا إلى هناك بالطائرة.

- أعرف. أنا على علم بكل ما يجري في هذا المنزل.

لم تجبها كارلي بل توجهت فوراً إلى الثلاجة لتخرج منها شراباً بارداً. وتناولت روشيل الكوب وهي تبتسم بسخرية وراقبتها كارلي بصمت وهي تتساءل عن السبب وراء زيارة روشيل المفاجئة: هل جاءت يا ترى لتزعجها؟ ولم تطل روشيل التحية بل طرقت مباشرة الموضوع الذي أتت من أجله.

- يبدو أن هواء الصحراء يلائمك جداً. يا للأسف! كم شهر يا ترى تبقى لك هنا؟ شهران... ثلاثة؟

- سأبلغ الواحدة والعشرين في الخامس من شهر آذار (مارس) إذا كان يهمك الأمر

يا روشيل.

- وكم أستعجل هذا اليوم. دارت يشعر بمسؤولية كبيرة تجاهك. أعرف جيداً من أي نوع هو. إنه يفعل الشيء ذاته لسوزان الشابة. لكن وضعها يختلف عن وضعي.

- في الحقيقة الأمر لا يعنيك.

وبدأت كارلي تفقد هدوءها وشحب لونها قليلاً. أما روشيل فحافظت على برودة أعصابها وابتسامتها الساخرة. وضعت كوبها على الطاولة وأجابت بصوتها بتهديد مبطن:

- طبعاً الأمر يعنيني يا آنسة كارلي كينغ. لن أخفي عنك الحقيقة ولا يعني أن رفعت صوتك بحدة. لا بد أنه خطر لك أني ودارت على تفاهم تام. تفاهم عادة وجودك المزعج في فترة حرجة. طبعاً لا نستطيع التخطيط لمستقبلنا وأنت موجودة تحت هذا السقف. أنا لن أطيق وجودك معنا مهما كانت الظروف. ولا تفكري أن تكوني ساذجة لدرجة تفكرين معها بعكس ذلك.

وحاولت كارلي السيطرة على نفسها قدر الإمكان.

- أعتقد أنك تبالغين يا روشيل. ربما كنت على تفاهم تام مع دارت. لكنه لا يحبك. أنا أكيدة من ذلك.

وبانت في عيني روشيل شرارة غاضبة زادت من شحوب وجهها.

- وكيف تعرفين ذلك أيتها العالمة الصغيرة؟ في كل حال، سواء أحبني دارت أو لم يحبني، أنا الشخص الملائم له. الملائم لدارت ولكنها دارت يشبه والده تماماً. كلاهما بحاجة إلى سيدة. ودارت يريد أبناء وريثاً لكل أملاكه. وأنا أستطيع الجمع بين الأمرين معاً... وببراعة.

- لا أعتقد أنك تستطيعين ذلك بدون مساعدته.

قالتها كارلي بثقة لكن قلبها كان يعتصر ألماً. روشيل على حق. دارت من الرجال الذين يعتبرون أن إنجاب طفل يكون وريثاً لكل ما عمل من أجله هو أفضل ما يتوجون به حياتهم. وروشيل كما قالت هي تشهد من

المرح الذي يتوقع المرء أن يجده «دارلاند كينغ» رشيقة، جذابة، لويف ربة بيت ممتازة ومزارعة بارعة وكأن «روشيل» احست انها يدور في اعماق «كرلي».

«أعتقد انني اصبحت افهم اموراً نحن نفهم بعضنا الآن»

وحاولت «كرلي» جاهدة السيطرة على رعشة يديها

«انا لم افهم شيئاً بعد يا «تريكسي» دارت» اعرف انني استطيع البقاء هنا الى الأبد انه لا يزول مثل هذه الاشياء بسهولة... لكني أعتقد بأني سأرحل من هنا عوض عنكي من ذلك.»

ورفعت عينيها «روشيل» فرحة بالانتصار

«انا افهم يا آنسة «كينغ» امرأة تعرف ماذا تريد وكيف تحصل عليه وانا أريد دارلاند كينغ الأمر بهذه البساطة لن اقبل بسؤالك هنا ولا بمعاملتك السخيفة «دارت» وكأنه طفل او مثال أعلى»

وتوقفت عيناها برهة على حمرة الخجل التي لونت وجه «كرلي»

«نعم تنظرين اليه وكأنه شخص مقدس هل تعتقدين بأننا لم نلاحظ ذلك؟ دارت اول من تنبه للأمر ولا بد انه يشعر بالحرج من جراء ذلك. طبعاً لم يقل لي ذلك. نحن النساء نتعامل فيما بيننا بأسلوب أكثر تصارحاً ولا نستعمل الاساليب الملتوية لقول رأينا»

وسكتت قليلاً تراقب اثر كلماتها على وجه «كرلي» ولا بد ان النتيجة اعجبتها لانها تابعت قائلة:

«من الافضل ان اعترف بأني لا انوي الانتظار حتى شهر آذار (مارس) لنعلن خطوبتنا «دارت» وانا نحاول اقتراح شيء ما للابتعاد عن طريقنا ما رأيك بالحيوان المريض؟ هل تستطيعين التخلص منه؟ لا... ربما لن تستطيعي لاي شيء الى الغد كوني عاقلة يا «كرلي» وذلك لمصلحتنا معاً.»

وخرجت «روشيل» مسرعة من غرفة الاستقبال فاصطدمت «بوركا» الذي كان يسترق السمع خلف الباب. كان من واجبه حماية الآنسة الصغيرة ومراقبته فما في تلك اللحظة كانت تنفيذاً لأوامر سيده

امسكت «روشيل» بكتفي «بوركا» وأفلتت منه بعنف.

«كيف سمحت لنفسك بدخول المنزل. ابتعد عن وجهي فوراً»

ومن وراء شتلات الورد، ظهر فجأة «كولبار جو» نظرت اليه «روشيل» نظرة واحدة وأسرعت باتجاه سيارتها اغلقت الباب بعنف وأدارت محرك السيارة. اسرع الحيوان الغاضب يلحق بها فانطلقت السيارة بسرعة خاطفة وصدمته. طارت «كرلي» الى مكان الحادث لم يكن «بوركا» يستطيع الوقوف على قدميه، كان ينقل نظره بين صديقه الملقى ارضاً وبين وجه «روشيل» المتشنج غضباً، وبين «كرلي» التي لم تكن تعرف كيف تتصرف. وفجأة قفز هارباً وهو يصرخ عالياً على غرار السكان الاصليين في القتال

أنزلت «روشيل» زجاج السيارة، التفتت اثر صوتها.

«آمل ان يكون هذا الحيوان القذر قد لقي حتفه. لن يجدوا من يضع اللوم علي. كان الامر مجرد حادث بسيط حاولي ان تتذكري ذلك يا حضرة الآنسة الصغيرة. استعيني بأحد العمال ليساعدك على التخلص من الجثة.»

وانطلقت «روشيل» وهي تلعن عالياً الحيوان و«كرلي» و«بوركا».

وعندما انحنت «كرلي» بقربه مررت يدها بخوف على جسم الحيوان المسكين. كان ما يزال حياً لا بد انه فقد الوعي لفترة بسيطة. ماذا تفعل الآن؟ ليس لديها اي خبرة في تقديم الاسعافات الاولية للحيوانات؟ وركضت فوراً الى الاسطبل لتبحث عن احد العمال. وبعد دقائق عادت برفقة اثنين منهم، لتجد «كولبار جو» واقفاً على قوائمه يهز رأسه بأسى كبطل مهزوم.

«يا الهي، شكراً لك.»

ونظرت «كرلي» الى السماء، قبل أن تلتفت الى العاملين لتشكرهما بابتسامة عريضة.

وبعد ساعات ثلاث كان «جو» قد استرد كامل عافيته. لكن «بوركا» ظل مختفياً، فلم يعرف ان صديقه العزيز ما زال حياً وتوجهت «كرلي» الى المطبخ لتبحث عنه بعدما يئست من العثور عليه بمفردها، سألت عنه العمال كلهم، لكن

الجواب دائماً بالنفي. لم يره أحد منذ الصباح. اقترب منها مايك متسائلاً:

- ما بك يا كولي؟ أتبحثين عن بوكا؟ لا تقلقي. غالباً ما يختفي ساعات طويلة في أحضان الطبيعة. سيعود قريباً.

- الأمر يختلف هذه المرة يا مايك. كولن هو من أخبرني. خافت هذا الصباح وبوكا يعتقد أن صديقه لن يعود.

نزع مايك قبعته عن رأسه، ليحك شعره بأصابعه:

- عزيزتي ما قلته يا كولي لم أفهم شيئاً. أنت تتكلمين بسرعة.

أخذت كولي نفساً عميقاً قبل أن ترد بهدوء:

- هذا الصباح مرت روشيل لزيارتي. لم تكن تريد شيئاً. قطعت كل هذه المسافة لتقول لي مرحباً.

لم تلاحظ كولي النظرة المتلهفة التي مرت خاطفة في عيني مايك. تابعت حديثها بحزن:

- وكلفني من يأخذ السيارة لقضاء حاجته. روشيل رمت نفسها على بوكا من شكل الحادث ولم أر بعد ذلك. أريد أن أمي أن ... يجب ...

ربما تلك من المسافة طويلة يا كولي. لا تقلقي بوكا الصغير يستطيع الاعتناء بنفسه وبتحسيب موقعه. سأخبر ... بالأمر في ... حاله.

- شكراً مايك. سأستعير سوزيتا وأذهب إلى التلال الرملية لأبحث عن بوكا. الطفل لا أريده أن يبقى حزيناً طوال النهار من أجل لا شيء.

ابتسم لها مايك بحنان وهو ينظر عميقاً في عينيها:

- حسناً يا عزيزتي.

وانتبه فوراً إلى ما قال. فأسرع يصحح خطأه:

- حسناً يا آنسة كولي.

التفتت إليه كولي باسمة:

- والفعل العبارة الأولى يا مايك.

وانطلقت وهي تسمع ضحكاته ترن وراءها.

- أراك هذا المساء يا آنسة كولي.

كان الحر شديداً في التلال الرملية. لكن نسبة الرطوبة المنخفضة جعلت الجو محمولاً. ترجلت كولي عن فرسها وربطتها إلى شجرة قريبة لتبحث عن بوكا سيراً على الأقدام. وتنقلت من مغارة إلى أخرى وهي تنادي عالياً باسمه.

أشعة الشمس كانت تلاحقها بقسوة. رفعت قبعتها عن رأسها لتمسح العرق الذي أغرق جبينها. وظل قميصها حتى التصق بجسمها. عليها أن تعود إلى المنزل قريباً. الجو ينذر بعاصفة قريبة. لكن كيف ترجع الآن؟ وبوكا تستطيع أن تجده في التلال. يخيفها أمر العاصفة والفكر بشأن البحث عن بوكا. ولن تتوقف الآن. هي مصرة على العثور عليه. وحدسها ينبئها أنه ليس بعيداً. وصارت تصرخ باسمه عالياً. ولكن يبدو أنها لم تعد تسمع صوتها. الرياح اشتدت قوتها والغيوم أخذت تغطي بشرفي منذرة باقتراب العاصفة.

وفجأة انهمرت قطرات المطر بشكل تتحول بسرعة إلى شلال غزير وصل الأرض بالسماء.

امتطت كولي فرسها سوزيتا وطارت بها صوب التلال بحثاً عن مخبأ. رائعة لكن أنها لم تكن تتوقع هذا الطقس القاسي. في الطقس حتى التربة سقطت درجتها بسرعة غريبة. فأحست كولي بأوصالها ترتعش برداً. وعندما وصلت الشابة أخيراً إلى هدفها كانت ثيابها المبللة ترتجف برداً ورعشة.

وترجلت كولي عن فرسها في المغارة الكبيرة التي اختارتها. كانت سوزيتا رائعة فعلاً. لم تتأثر بالعاصفة. بل ظلت على هدوئها ولباقتها. أخرجت كولي قطعة قماش جافة من خرج الفرس وأخذت تمسح بها جسم سوزيتا المبلل. يا إلهي كم تشعر بالبرد. عليها أن تشعل ناراً. لديها علبة ثقاب في جيبها. وعلى الأرض هناك مجموعة جافة من الأعشاب اليابسة.

والتفتت كولي لتشعل النار وأسنانها تصطك برداً. وأحست فجأة بظل أسود على باب المغارة يحجب عنها ضوء النهار. لم تتحرك من مكانها. خفق قلبها بسرعة. وتجمع الخوف كله في نفسها لتحول لونها إلى الأخضر الداكن.

وضمها «دارن» بين ذراعيه وكأنها دمية صغيرة.

«ألن تستطيع ابداً ان أتركك وحدك؟ انظري الى نفسك. انت ترتعشين كطفلة لم تتجاوز بعد الثالثة من العمر».

وشهقت «كرلي» وهي تكاد لا تصدق وجوده قربها.

«من اين اتيت يا «دارن»؟ لا اعرف كيف تفعل ذلك! كيف تمكنت من العثور عليّ؟»

«لن اهتم بالتفاصيل الآن. فلنقل انها حاستي السادسة».

وابتعد عنها بعدما تأكد من انها تستطيع الوقوف على قدميها، وكطفلة صغيرة تشبثت بشعف وزرقة.

«الجو بارد جداً».

«طبعاً. كنت اعلم اني لن اجدك سالمة في المنزل لدى عودتي. كان عليك ان تخرجي وحدك في هذا الطقس العاصف».

ورمى لها «دارن» بكيس كبير من البلاستيك في داخله ملابس جافة.

«هيا ابدلي ملابسك. انا لا ارغب في تمريض فتاة صغيرة مصابة بالبرد».

ونظرت «كرلي» حولها. اين ستغيّر ملابسها؟ ماذا تفعل؟ انها لا ترى زاوية واحدة تستطيع اللجوء اليها!

«هيا يا «كرلي». غيّري ملابسك ولا ترغميني على ذلك». قالها بقسوة، والتفت الى مدخل المغارة ليتأمل غضب ولادة العاصفة، وانصاعت «كرلي» للأوامر. فاستبدلت ثيابها المبللة بالقمصان الجاف الذي احضره «دارن»، وعندما انتهت قالت بخجل:

«انتهيت من ارتداء ثيابي يا «دارن»».

التفت اليها متفحصاً. كم تبدو رقيقة وصغيرة في قميصها الأبيض.

«تعالي الآن قرب النار».

ولبّت «كرلي» فوراً. ما هو سرّ هذه السلطة التي يمارسها عليها وانني لا تستطيع التغلب عليها. انه «دارن» ابن عمها لماذا لم تعد تستطيع ابداً ان تنظر

اليه كما كانت تفعل وهي طفلة. وشعرت فجأة بالخوف من هذا العالم المجهول الذي بدأت تكتشفه بدون ان تفهم اسراره.

«ما بك يا «كرلي»؟ خائفة من العاصفة؟»

«طبعاً لا. لكني لا افهم سرّ عصبيتك. يبدو انني ازعجك دائماً. لم تكن هكذا... او بالأحرى ...»

وتوقفت فجأة عن الكلام. كان «دارن» يحدق في الظلام وكأنه لا يسمعها، وحاولت «كرلي» ان تقطع الصمت الثقيل الذي خيّم فجأة على جو المغارة.

«كنت ابحث عن «بوكا»».

«اعرف. لكني لا اعرف لماذا لم يحاول احد ان يمنعك من القيام بذلك. «بوكا» يا عزيزتي هو في منزله الآن في اسطبل بعد، بينما انت تبحثين عنه في العاصفة. كان على «مايك» ان يأمرك بالعودة الى المنزل فور اكتشافه لرغبتك».

«مايك لا يعاملني كطفلة انه يعرفني اكثر منك. انا امرأة. بعد اسئلة لم تلاحظ ذلك بعد اعتبر «مايك» انه يشعرني باني امرأة».

اقترب منها «دارن» ووجهه الاسمر يختلج غضباً. وضع يديه على كتفيها بقوة حتى كادت تصرخ ألماً.

«يا لك من طفلة ساذجة. اي كان يستطيع ان يشعرك انك امرأة».

وارغمها على رفع رأسها باتجاهه. دار العالم بها ... استسلمت «كرلي» لعناقه وكأنها لا تريد التحرر منه ابداً.

وابعدها «دارن» عنه ليقول ساخراً:

«ما رأيك الآن؟ الا تعتقدين ان اياً كان يستطيع ان يشعرك انك امرأة؟»

ارتجف قلبها استياء. وخفق قلبها فسخر منها. انه يعرف انها تحبه لانه يعلم ذلك الآن. تجاربها الهائمة بين ذراعيه خير برهان على ذلك. تباً لك يا «دارن». تباً لتسلطك وسيطرتك عليّ! انا لست افضل من اي سجين مقيد بالحديد.

عقد «دارن» حاجبيه وهو يراقب وجهها.

«هيا يا «كرلي» ضعي معطفي حول كتفيك سنعود الى المنزل. اوقفت سيارتي

على بعد امتار قليلة.

احست "كارلي" برغبة قوية بالبكاء. كم تشعر بالتعب والضعف في هذه اللحظة.

- خذني الى المنزل يا "دارت" ارجوك.

- حسنا يا حبيبتي.

وفي داخل السيارة ارخت "كارلي" جسمها الصغير على المقعد الوثير. ترى منها يمكنها لدرجة تشعر معها بأن الالم نفسي وجسدي معاً. على الاقل تستطيع [illegible] امرأة لا يمكن ان تتحمل ان تكون قريبة منه الى هذه الدرجة وتكون بعيدة عنه في الوقت ذاته.

وطوال الطريق الى المنزل اشاحت بوجهها عن "دارت" لتراقب الطبيعة التي تحب.

١١ - هدية تحت الشجرة

في عطلة الميلاد ورأس السنة الغربية جاء "ريك" كينغ وزوجته "بربارة" لزيارة "كنغاروا". كان "ريك" صديقاً حميماً لـ"سمارت" ولديه شعور [illegible] لكارلي. أما زوجته "بربارة" العروس التي اقترن بها منذ ستة أشهر فقط، فكانت قبل زواجها من اشهر سيدات المجتمع في "استراليا". وكانت هي التي رغبت بزيارة "كنغاروا" التي تعتبر من أغرب المواقع [illegible] بمزيتها [illegible] وطابعها المميز.

وكان اللقاء حاراً بين القريبين الصديقين. اما "كارلي" و"بربارة" فوقفتا تنظران الى بعضهما بشيء من الحذر حتى ابتسمت "بربارة" ابتسامة [illegible]. ابتسامتها الرائعة ذكرت "كارلي" بالصور المثيرة التي كانت تراها في صفحات الاخبار الاجتماعية. كم هي جميلة وانيقة ومرفهة. تفهم الآن لماذا كانت "بربارة" تعتبر نجمة صفحات [illegible] الفكرية والاجتماعية والاعلانات. الى هذا كله كانت السيدة الشابة بارعة في فنون الفروسية والتزلج على الماء والجليد. ولاحظت "كارلي" ان ابتسامة "بربارة" تزداد اشراقاً كلما اقترب منها زوجها "ريك". كان من الواضح انها تحبه جداً. عيناها تفضحان حبها، وكذلك نبرة صوتها التي تتدفق حناناً كلما تحدثت اليه. و"ريك" بالطبع كان الزوج الذي تحلم به اي فتاة. طويل القامة، اسمر اللون، تنم تقاطيعه عن اصالة تميز جميع افراد عائلة "كينغ". والى جانب هذا كله كان الوريث الوحيد لـ[illegible] "كينكوميلا". لم يكن غريباً اذن ان تختار "بربارة" من بين كل الرجال الذين

تقدما لخطبتها. وكانت السيدة كينغ أكثر من عرفت أنه لم يكن هناك حتى مجال واحد للتردد والاختيار بين ريال وسيمون. التقاها زوجها خلال إحدى رحلات العمل التي يقوم بها إلى سيدني. وفور وقوع نظره عليها قرر بيقين أنها ستكون زوجته. رغم أن ريتا كانت آخر من علم بهذا القرار.

وتوطدت أواصر الصداقة بين ريتا وكولين. وسارتا تتجولان معاً لحظة من قلب الحقل وفي رفقة بوكا. وخلال إحدى النزهات أخذت ريتا تتحدث بانفعال عن حبها لزوجها. شعلة الغرام في عينيها جعلت كولين تشعر برغبة في البكاء. فلاحظت السيدة الشابة ذلك فرقت عيناها عطفاً عليها.

كولين العزيزة. يبدو أني ضايقتك من حيث لا أدري.

ابتسمت كولين بتعب وهي تحاول أن تكسو صوتها نبرة ساخرة.

عكس المرأة يا ريتا لا تعيبه.

إنه دارت طبعاً.

استطاعت ريتا بلحظة، رغم ملاحظتها، أن تدخل فوراً إلى أعماق كولين.

لا بد أنه دارت.

ولم تجب كولين بل رفعت رأسها إلى السماء. وبدت ريتا [illegible] ببساطة متناهية.

شعرت أن دارت لا يرضى. إن كينغ نوع خاص جداً من الرجال.

وظل تعليقها لحظات طويلة معلقاً في الهواء بانتظار رد الفعل عليه. فأجابت كولين بعد:

وأنا أتفق مع دارت الصغيرة يا ريتا. أنت لم تلتقِ بروسيل نيفيلت بعد. إنها من مزرعة نيفيلت، [illegible] على الحدود الشمالية الشرقية.

وهل من المفروض أن يعني ذلك شيئاً خاصاً؟

نعم. بيلا ترتب حفلة عشاء [illegible] بها في الحفل. إنها الفتاة المناسبة لدارت في نظرها. قالت لي هذا. إنها شابة سمراء، رشيقة، وجذابة.

كان هناك أثر من الأسف والحزن في صوت كولين.

ضحكت ريتا عالياً وضحكت عيناها مرحاً

فور عودتنا إلى المنزل انظري إلى نفسك جيداً في المرآة يا كولين. أنت فتاة جميلة جداً. لك شخصية قوية ورقة ظريفة. هذه معادلة كافية بسحر أقوى الرجال.

وابتسمت كولين فرحاً وهي تستشعر [illegible] على صديقتها الطيبة.

وأنت [illegible] يا سيدة كينغ. تلك مشكلة جداً للأسف. دارت لن ينظر إلي إلا كطفلة صغيرة مشوشة الخصلات. ولأعترف أنها [illegible] أنا أحب بامرأة ناضجة وساحرة.

هذا ما تعتقدينه. على أن [illegible] بعض أسرار الاستراتيجية التي استخدمتها مع زوجي. وأثبتت نجاحها كما ترين.

ورفعت بحركة عفوية خصلات شعرها الأشقر التي تتهدل على جبينها [illegible] بريق شقاوة في عينيها. وراحت تؤكد بخبرة المرأة الناضجة:

كلما أفكر بالأمر كلما أصبح أكثر ثقة بأنك المرأة المثالية لدارت. أنا معجبة به جداً. إنه من ذلك النوع من الرجال الذين يحتاجون إلى زوجة [illegible] الأنوثة.

وهمست بصوت منخفض وكأنها تخطط لمؤامرة.

أنا أدرى منك بهذه الأمور. دارت لا يختلف كثيراً عن ريال. [illegible] إلى [illegible] كبريائه.

وتبادلتا ابتسامة سريعة. ولحظة عرفت كولين معنى الأمل. [illegible] على [illegible] بين أحضان الطبيعة [illegible] الأزهار البرية لدى مرورهما، [illegible] يمتد على كتف المساحات الواسعة من العشب الأخضر.

كان المنزل يضج بالأضواء والأزهار. تركت بيلا إلى غرفة الاستقبال لتشرف على اللمسات النهائية قبل وصول الضيوف. بعد قليل ستصل روسيل برفقة والدها [illegible] نيفيلت. والتقت بيلا نظرة رضى على [illegible] الحلوى والطعام.

وأدركت أنها لا يمكن أن تريها أفضل من ذلك. كولين ساهرة هنا في وضع اللمسات النهائية. يكفي أن تكون بعض التغييرات هنا وهناك لتبدو الزهور في أروع حلة. وتوقفت نظرات بيلا على مائدة الطعام. ثلاث قطع من الكريستال الشفاف ترقد تحت مهرجان من البنفسج ترتصف بينها شموع بيضاء صغيرة كحبات الندى. عليها أن تتذكر إضاءتها مباشرة قبل العشاء إنه الفن الأمثل لإثارة الشهية والأعصاب.

في زاوية غرفة الجلوس تألقت شجرة الميلاد بكل أضوائها لترحب بالضيوف. لاحظت أن دارت اشترى لعبة كبيرة لـ بوبي. كما تلاحظ من خلال كثرة الهدايا تحت الشجرة ما أحضره من وقت. وأحست بيلا كأنها عادت طفلة صغيرة تتحرق شوقاً للعيد.

وبعد نصف ساعة كان البيت يضج بالموسيقى والضحكات. سوزان وزوجها [illegible] التي كانت تتصرف بغنج ورزانة لم تتوقعها بيلا من ابنتها للمرة الأولى. ولبست فستاناً أنيقاً زادها جمالاً لونه الأزرق الداكن المحلى بتطاريز رقيقة أبرزت لون عينيها الزرقاوين. أمضت الأم وابنتها معظم ساعات النهار في البحث عن هذا الفستان.

كولين كانت رائعة في فستانها الأسود البسيط. كانت تجمع بين الأنوثة والطفولة رائعة كوردة برية. اللون الأسود يليق بها فعلاً. فشعرها الناري تألق أكثر فوق الثوب الداكن. أما عيناها فبدتا أكثر اتساعاً واخضراراً، وزادهما عمقاً وإشراقاً خط الكحل الداكن الذي استعملته حولهما. وعرفت بيلا أن رينا هي المسؤولة عن هذا الإشراق الجديد في عيني كولين اللتين لم تعرفا الكحل من قبل.

وكانت رينا [illegible] كأنها تلحق ما يدور في ذهن بيلا فهي منسجمة في الحديث مع دارت كما أثار غيرة رشيل التي لم ترفع عينيها عنها لحظة واحدة. رغم أنها هي أيضاً كانت تبدو في قمة أناقتها وجاذبيتها في ثوبها الحريري الأحمر.

وتشعب الحديث ليتناول مواضيع مختلفة وأظهر بوسمان [illegible] اطلاعاً واسعاً ينم عن ثقافة عالية. أعجبت به كولين. كان رجلاً طيباً وودوداً طاغي احترامه على الجميع.

رافقها بوسمان بالحوار وهما يتحدثان عن أشياء مختلفة. وبدت على شفتيه ابتسامة حائرة.

«أتعرفين يا آنسة كولين أنك لست كما توقعت»

«وماذا توقعت يا سيد بوسمان؟»

«كنت أتوقع أن ألتقي بفتاة طيبة ومرحة وذكية لا تعرف معنى الكلفة والتصنع»

تكلم بدون تفكير، وبدون أن يتوقف لحظة واحدة ليراقب أثر كلماته على وجه الشابة الجميلة. كم هي جذابة ورزينة! ليست أبداً كما وصفتها له ابنته رشيل. بصراحة كانت العكس تماماً مما أوحت به إليه مسبقاً. رشيل [illegible] صوابها عندما يتعلق الأمر بكولين.

وانصرف انتباه كولين إلى رينا الذي كان يتكلم عالياً من أنه يعيش في هذه الأمسية. وأرهقها رينا بالأسئلة والتعليقات وما هي إلا لحظات حتى كانت تضحك عالياً تجاوباً مع سحر ابن عمها البعيد.

دارت كان يترأس الطاولة. سمع ضحكاتها فابتسم لها ساخراً. وردت عليه بنظرة متحدية. [illegible] رينا [illegible] والنصح. ثم حوّل نظره إلى رشيل لتستقر أخيراً على كولين التي لاحظت تحوّله الصامت فأجابت بعفوية:

«هلا كففت تنسيلا».

نظر إليها رينا مقطباً واسترخت قسمات وجهه

«حسناً تكلمي سأكون النقطة محرجاً».

[illegible] في عينيه [illegible] كولين [illegible] في الساعة

بعد العشاء سيقوم السكان الأصليون بحفلة راقصة ترحيباً بالسيد دارت وشريكه. كانت الليلة رائعة السماء المخملية [illegible] تحت نجوم الكون بعيونها الصغيرة

الزرقة التي تناثرت أضواء فرحة في عتمة الليل.

أخذت «كولين» نفساً عميقاً وهي تشعر بالحزن والسعادة في وقت واحد. الهواء يلامس دافئاً على وجنتيها مشبعاً بعطر الأزهار الليلية. أضواء اللمب الشبكية تتلألأ من الخيمة على عديد الشرفة، وتمرح بعضها كلآلئ مضيئة على عشب الحديقة. ومن الداخل كانت تصلها أصوات الأحاديث والضحكات. ليلة رائعة فعلاً تمتزج فيها الفرح بالسكون والسلام.

قرب المسبح اشتعلت النيران التي أشعلها السكان الأصليون احتفالاً بعيد الرجل الأبيض الذي عاد، وسوف يتناولون بعد قليل لحوم ماشية كثيرة مشوية بالبهارات وجميع أنواع الفاكهة. ومن خلال الشجر البعيدة تصاعدت رائحة اللحم المشوي.

رفعت «كولين» وجهها إلى القمر الذي كان يتربع سعيداً بين الأغصان، وابتسمت تستعيد شبح الحلم لأول مرة كمثلة هذه في كانها منذ طفولتها، ومنع جذورها. كيف يمكن أن تبتعد عنها؟

وسمعت «كولين» وراءها وقع خطاه فالتفتت السحر أنها «روشيل».

-كيف حالك يا طفلتي الصغيرة؟ لا تظني أني لم ألاحظ علي الأقل تلك نظر «دارت» لفستانك الأسود، والكحل في عينيك.. أتعتقدين أني غافلة عن كل هذا.

وراحت «روشيل» بيدها لتصلح بعض ما تناثر من شعرها ثم نظرت إلى «كولين» بكثير من السخرية والحنان.

وتذكري أيضاً أن الحفلة هنا مؤقتة لا تحاولي التقرب من كل أفراد العائلة لتحقيق أهدافك الخاصة.

وابتسمت هنا «كولين» قالت بسعادة:

يا إلهي «روشيل» أنت أستاذة غريبة فعلاً إذا كنت تحاولين إحراجي فلن تنجحي في ذلك ليس هذا الوقت أو المكان المناسب.

تنحنحت «روشيل» وبدا كأنها تريد أن تلعباً في الحديث لكنها لا تتكلم

إحساسها في اللحظة الأخيرة.

-فاتركه مرة أخيرة يا «كولين» لا تحاولي التحايل على توقعات.. فأنت ستسمعين ما أعرف منذ أن تركتني. «دارت» يدرك تماماً الطريقة التي يعمل بها عقلك.. الفستان الأسود والبقية.

لم تجب «كولين» في مكانها وجهها كان يعبّر عن الحزن والقلق معاً متكتفين بالصمت. كرامتها لا تسمح لها بالرد على مثل هذه الاتهامات. يا لها من امرأة قاسية! لا يهمها الأساليب التي تستعملها لإزالة الثقافة.

-سأتركك الله شيئاً واحداً يا «روشيل»، وهو أنك عجيبة مزعجة.

رنّت ضحكة «روشيل» قصيرة قاسية.

-من حسن الحظ أن هنا رأيك وحدك، ورأيك لا يهمني.

وقطع الحديث اقتراب «مايك» منهما.

-آسف على قطعت حواركما.

وحاولت «روشيل» أن تحسن إجابتها مزيجاً من التجريح بقالستها:

-لا، الحديث لم يكن مهماً في أي حال. ما زالت «كولين» طفلة صغيرة سأتركما معاً لأنني أظنكما أنتما.

وابتعدت قبل أن يعلق أحد منهما على كلماتها الباطلة..

-يا لها من امرأة غريبة لا تهتمي بها يا «كولين» من الواضح أنها تغار منك. وطبعاً تغار مني يا «مايك».

ووضع «مايك» ذراعه حول كتفيها وسارا معاً إلى الحديقة.

-طبعاً تغار، أنا مثلاً لم أستطع أن أرفع بصري عنك طوال السهرة.

وبعد قليل كان الجميع يجلسون في الشرفة لمشاهدة الاحتفال الذي أقامه السكان الأصليون لهم. استرخت «بيلا» في مقعد وثير قرب «سوزان» و«بنيلي» وإلى جنبها «جوستان» تتبادلان برواية «دوبال»، استقرا في زاوية الشرفة قرب «دارت» و«روشيل» أما «مايك» فظل إلى جانب «كولين» لا يفارقها.

وبدأ الحفل بمجموعة من الرقصات الوطنية قام بها الراقصون بخفة وبراعة.

وعلى رؤوسهم أشكال غريبة مصنوعة من ريش الببغاوات الملونة. أما صدورهم البرونزية فكانت مزينة برسوم يقال كل واحد منها أسطورة وطنية عبر عنها أصحابها بالأحمر والأصفر والأبيض.

وتصاعد الإيقاع في الهواء صاخباً، ورقيقاً أحياناً أخرى. وامتزجت الأجسام مع النغم، حتى شكلت وحدة متكاملة يصعب الفصل بينها. صارت الرقصة أحجية والأغنية رقصة. وحبس الشاهدون أنفاسهم أمام هذا الاستعراض البدائي الراقص الذي يتفاعل معه المرء بكل جوارحه، والذي يفجر في الأعماق أحاسيس غريبة تعيد الإنسان إلى فطرته بعيداً عن القيود الزائفة. شعور لا يستطيع أن يفسره إلا من عاش قريباً من الأرض. تنكر الراقصون لساعات قليلة من كل كل انفعالات الطبيعة الإنسانية من خوف وحلم وأمل وعنف.

وعندما خفتت الموسيقى، وهدأت الأجسام ارتفع التصفيق يعبر عن الانفعالات المشتركة التي جمعت بين الأصليين والبيض بدون تمييز.

ومرت بقية السهرة، وكولين تشعر أنها خارج الزمان والمكان. دارت يتحاشاها تماماً كأنها غير موجودة. أعماه الغضب وريشيل كان وجهه كتلاً بعيداً عنها. وصديقتها تتصرف كأنها سيدة كنغارا. وحاولت كولين أن تتمالك أعصابها قدر المستطاع. لا تريد أن تلاحظ ريشيل ضعفها فتسخر منها. يكفيها ما حصل حتى الآن.

وحاول مايك وستيفن التخفيف عنها قدر المستطاع، لكنها لم تستطع أن تبعد عينيها عن رأسي دارت وريشيل المتلاصقين. كم تتألم في هذه اللحظة. كانت ريشيل تتكلم بحماس وثقة المرأة الناضجة التي تعرف جيداً أنها استطاعت الفوز بالرجل الذي تحب، أنه عم دارت. الصغيرة لم تعد تشكل خطراً عليها. داونلاند كينغ أصبح ملك يديها وكذلك كل أملاكه. ووضعت ريشيل يدها على عنق دارت، فعرفت كولين معنى الغيرة التي تجعل القلب ينزف دماً. ضحكت بصوت مرتفع لتخفي اضطرابها. لن تسمح لأحد بأن يكتشف شعورها الحقيقي ولم تعد كولين تطيق النظر إليهما أكثر من ذلك.

تحركت أقدامها إلى ريك وريكارد كأنما يرقصان على أنغام موسيقى ناعمة، كعاشقين لا يربطهما في الدنيا إلا حبهما. ما أسعدهما من زوجين!

وانتهى الحفل، فتوجهت كولين إلى غرفتها. أخذت تسير ذهاباً وإياباً بين الجدران الأربعة، عاجزة عن الاستقرار في مكان واحد حتى الدموع استعصت عليها. لو أنها كانت أكثر نضجاً وخبرة، لعرفت عندها كيف تتعامل مع هذه الأزمة العاطفية التي تهز كيانها. دارت كان في كل شيء، حولها، في الهواء الذي تتنفس. لا تستطيع مقاومة حبه المغروس عميقاً في كل وجودها. نظرة واحدة إلى وجهه الأسمر كانت كفيلة بجرحها عميقاً. لم تشعر في حياتها بكل هذا الضعف والإذلال.

ونظرت إلى صورتها المنعكسة في المرآة.

ـ آه لو كنت أكثر نضجاً!

وبحركة طفولية مدت لسانها هازئة، تسخر من صورتها. عليها أن تأوي إلى فراشها الآن، هي متعبة وتريد أن تنام. وفجأة تذكرت هدية دارت. كانت تنوي أن تعطيه إياها على انفراد. لكنها غيرت رأيها الآن. ستضعها تحت الشجرة مع بقية الهدايا. اختارت له هدية تعني لها الكثير. ستقدم له أزرار أكمام من الذهب الخالص والأزرار كانت لأبيها والدها. كم تتمنى لو تستطيع البكاء. لا، لن تبكي. لم تعد طفلة. ستنزل الآن بهدوء لتضع الهدية تحت الشجرة.

ولم تكد كولين تدخل غرفة الاستقبال حتى استوقفها دارت:

ـ ماذا تفعلين هنا يا عصفورة الليل؟ أنت ترتعشين.

لم تجبه بل تابعت سيرها إلى الشجرة. فأرغمها على التوقف.

ـ ماذا تخبئين في يدك يا ساحرتي الصغيرة؟ لا تقولي أنك تحملين قلبك على يدك لتقدميه لي هدية!

ثارت كولين لكرامتها أمام هذه السخرية الواضحة بها، فأجابت بعنف:

ـ لا. قلبي ليس لك يا داونلاند كينغ.

ـ هل هذا قرارك النهائي؟!

«نعم، كم أكرهك يا دارت».

قالتها بمرارة وهي تتمنى لو كانت صادقة فعلاً في قولها.

وكانت رنة صوته ناعمة، احتضنتها بقسوة وهو يرده بعنف

«لن تخيفيني عن حبي وأنت حية يا كولي»

وحاولت أن تتخلص من قبضته بدون جدوى. كان أقوى منها.

«كنت شديدة الإغراء هذا المساء يا معشوقتي بفستانك الأسود لا بد وأن عائلة أعجبت بذلك الرجال كلهم وقعوا تحت سحرك، وأنا واحد منهم»

وصفعته كولي بمرارة والعطلات على صفحة تقبل بينهما. لم يتحركا من مكانهما. وأحست كولي بالخوف وهي ترى دارت يحاول جاهداً السيطرة على غضبه.

«دعني إلى فراشك يا كولي قبل أن أفقد أعصابي».

وركضت كولي إلى غرفتها والدموع تنهمر من عينيها... دموعها سترافقها في الليالي المقبلة كلما تذكرت هذه اللحظة الأليمة. طعنها دارت في الصميم وجرحها لن يضمده الزمن. لن تعرف السلام بعد الآن. ستجد طريقة تخرج بها من الحصار الذي فرضه عليها دارت، وستغادر هذا السجن الإجباري بدون رجعة ستتحرر من قبضته أخيراً.

١٢ ـ سيدة كنغارا

كانت بحيرة كينكوميلا مكاناً رائع الجمال، تحيط بها سور كثيف من النباتات الخضراء، تطرزه الزهور كلوحة برية تحييها العصافير والفراشات، وتضيئها أشعة الشمس المتلألئة على المياه الفضية.

جلست كولي ساهمة على صخرة قرب الشاطئ، تلقي الحصى في الماء، وتراقب الدوائر الكبيرة اللامعة على سطح المياه حتى تعبت واختفت. كان الجو شبيهاً في الطرقات، أما هنا فالنسمات المنعشة تتلاعب بين الأغصان هرباً من أشعة الشمس.

أسندت كولي ظهرها إلى جذع شجرة قديمة، غير مبالية بوخز الأغصان اليابسة التي اخترقت قميصها الرقيق. مضى على وجودها في كينكوميلا أسابيع ثلاثة عاشتها في عزل من الخمول النفسي وكأنها معلقة خارج المكان والزمان. فقط صورة دارت كانت تعيدها إلى الحياة بين حين وآخر، وتخرجها من صمتها. كيف تستطيع أن تنسى الزوج الأسمر الغريب، وكالطيف مطروزاً عميقاً في كيانها.

واتجهت أفكار كولي إلى بربارة. يعرفان بعضهما، إنها صديقة رائعة تربطهما رابطة قوية جمع بينهما بسرعة. ومرة بعد مرة طوال الأيام الثلاثة حاولت بربارة تجنب الاسم المحرم، برغم أنها غالباً ما كانت ترغب في التطرق إلى موضوع دارت.

بربارة هي التي اقترحت، بل أصرت على اصطحاب كولي معها إلى

كيتكومبلا. لا يستطيع احد ان يفلت من قوة ملاحظتها نظرة واحدة الى وجه
كولي، صباح اليوم الذي اعقب الحفلة، جعلتها تتخذ القرار بابعاد كولي
عن كنغارا وعندما تحظى ريال قراراً كان من عاداتها العمل بسرعة على
تنفيذه.

رأت كولي هذا الشغل وكأنه انشارا من السماء. ريال كانت أول
خطواتها على طريق الخلاص، إنها المخرج الوحيد لتلك المعضلة التي فرضت عليها
دارت. افراد العائلة جميعهم لاحظوا التوتر السائد بينها وبين ابن عمتها فللمرة
الاولى تتجنب رفقته ويتحاشى هو وجودها.

لم يعارض دارت قيام كولي بهذه الرحلة القصيرة، واعتبرها اجازة
مؤقتة تعود بعدها ابنة عمه الى المنزل. اما ريال فرحبت بالفكرة لأنها حسبته
بغريزتها الانثوية حاجة كولي الابتعاد عن اجواء كنغارا.

ورحلت كولي عن منزل طفولتها، ودفع الها هذه الفرصة السعيدة.
احست بالراحة لوجودها مع ريال وبيار التي لم تكن تلتقي تعلقها الشديد
بصديقتها الشابة.

وكانت ريال تحب الاستغراق في قيلولة قصيرة بعد الظهر، عكس
كولي التي اعتادت تمضية هذا الوقت تتنزه وحدها قرب البحيرة.

استلقت كولي على الاعشاب، واراحت رأسها على يديها تحدق بزرقة
السماء التي تناثرت قطعاً صغيرة بين اوراق الشجر.

وأغمضت اهدابها العالقة عينيها وشرد ذهنها بعيداً وراء الحلم الوحيد الذي
يشغل بالها، وسقط شعاع شمس على وجهها، فشعرت قواها تستعيد كطفلة
سعيدة، وبالحب والجمال المحيط بها وفي مكان ما في داخلها أحست كولي
بشيء من السلام.

عليها ان تتوصل سريعاً الى حل يرفعها من الصراع الذي يمزقها لكن كيف؟
لا تستطيع البقاء في كيتكومبلا وتتم معاملة ريال وبيار الطيبة، وتجب
تتعثر على الطريق الوعرة ذاتها.. الطريق التي تعيدها الى دارت. ترى ماذا يفعل

الآن؟ ربما تفكر في شيء ما من حل المشاكل التي كانت تقيد علاقته بروشيل.

واسترجعت في ذهنها صورة الوجه الاسمر الوسيم الذي تعشقه عيناها وما يبثانه
واسعدها. تأوهت عالياً وهي تحاول ان تمحو الها عبثاً في داخلها ايما كانت
صورة دارت لا تفارقها. وعبرت سرب من الطيور حلق فوقها قاطعاً ابتسمت
للفضاء الرحب.. أما هي فلن تستطيع ان تصبح حرة مع ابتعاده.

هل هكذا يشعر كل الناس عندما يحبون؟ وهل يفقد المرء هويته ليذوب في
شخصية الحبيب؟ كانت تعتقد ان شيئاً لا يمكن ان يفرق بينها وبين دارت. هل
يمكن ان يفترقا الآن؟.. من المستحيل حدوث ذلك! واحست الهواء بالتعب يشل
اعصابها وذهنها، فغرقت في نوم عميق، لم تنم مثله منذ عدة ليالٍ.

وامتدت الظلال على جسمها الساكن وسقطت بضع وريقات يابسة تداعب
شعرها الثائر بحنان. وافاقت من سباتها على زقزقة العصافير التي اخافها وجود
شخص ما، وفجأة ابعدت عنها الغصن من شجرة قريبة. فرفعت رأسها لترى من
يداعبها بهذه الطريقة.

وخفق قلبها بشدة. دارت! كم احبه وتريده لكن كيف تستطيع الهروب منه وهو
مصمم على ملاحقتها لسبب لا تفهمه؟ رفعت رأسها باحتداد، واستكانت في
جلستها وهي تراه يقترب منها مبتسماً.

«مفاجأة! مفاجأة!»

لم تجب ولم تتحرك من مكانها فسألها بالحاح:

«ألا تريدين العودة الى المنزل يا كولي؟»

وسقطت خصلة شعر لوسرية على جبينها فرفعتها بعصبية وحولت كولي
النظرة على وجنة يديها وهي تجيبه ساخرة:

«لم أكن أعلم انك صرت تقوم اجازتي بوقت معين يا دارت!»

ضحك عندئذ، وتقلصت عضلات وجهه دلالة على التوتر الكامن في داخله:

«لا تتحدثي يا صغيرتي. لقد أتعبت، وانت تعرفين جيداً معنى كلمتي»

ووضع يده على كتفها في لمسة تعرفها جيداً.

«ألم تشعري طوال هذه المدة بشوق لرؤيتي؟»

وبانت عليها على وجهها انفعالات بالغة لذلك.

«أدري أنك خسرت شيئاً من وزنك يا عزيزتي. ألم يكن ريتشارد يطعمك جيداً؟»

ابتسمت كوليت بوجهها وهي ترتبك

«الأمر هنا كانت تعيسة جداً يا دارت. عاملني ريتشارد ووزيرله أبوه كأنه استقلالي بصورة رائعة. شعرت أني واحدة من العائلة، وإني أعيش فعلاً في منزلي.»

وركض دارت تجاه السائق مرة أخرى

«وهل تعني كلماتك هذه اتهاماً مبطناً؟»

«لا... ما لم تكن أنت ترى فيها ذلك»

وانحنت لتلتقط كتابها الذي سقط أرضاً

«لا تحدثيني يا كوليت. لم أعد أحتمل المزيد»

وفجأة اختفى كل أثر للسخرية عن وجهه، وحل مكانها تعبير تراه كوليت للمرة الأولى.

«هل تريد مني يا دارت أن أعود الى المنزل كطفلة مطيعة؟ لا أستطيع...»

وارتفع صوتها. لقد عرفت فوراً أنها ضعفت مرة أخرى، سيكون الأمر هكذا دائماً مع دارت!

وانطلقت تركض هاربة منه، كحيوان بري خائف من الوقوع في قبضة الصياد. ولكن دارت من الأمساك بها في سهولة. أحاطها بذراعيه، فأفلتت منه وعادت تجري. لم تستطع أن تبتعد كثيراً عثرت بجذع شجرة يابسة ووقعت باكية في العشب.

انحنى عليها ورفعها بين ذراعيه، فخبأت رأسها بين يديها كطفلة صغيرة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها.

«لا، لا يا دارت»

وكان جوابه الوحيد على دفعها المستميت لبلة طبعها بحنان على جبينها المبلل

بالعرق. لم تعد ترى أي مشكلات بين ذراعيه وهي تشعر بإرهاق شديد. أطلقها دارت قريبة من قلبه.

«سامحيني يا كوليت... أعلم أني لن أدعك تهربين مني. آسف إذا كانت مشاعري لا تتوافق مع رغبتي. لكني لن أدعك تبتعدين عني بعد الآن. سأعود بك الى كنغزلا حيث تنتمين.»

اتسعت عيناها للمفاجأة. بجهد تكاد لا تصدق ما تسمع.

«تعني...؟»

كانت الكلمة وكأنها حلم. النشوة الطفولية في صوتها جعلت دارت يبتسم بحنان رغم التوتر الذي ما زال يشعر به يهز كل كيانه.

«نعم يا حبيبتي... نعم أحبك.»

وأحست كوليت بخفقة القلب. وعندما التقت نظراتهما أخيراً رأت كوليت في عينيه كل الحب الذي كانت تتمنى. أحاطت عنقه بذراعيها وألقت رأسها على كتفه بشوق. وللمرة الأولى منذ أسابيع طويلة راحت تتنفس بعمق. وبعد لحظات تمكنت أخيراً من القول:

«وعندما افكر اني كنت اغار من روزبيل»

ونظرت إليه ثانية، فرأت وجهه يشرق فرحاً... دارت كما عرفته دائماً... لا بل أحلى منها

«وربما العيب في قليل من الغيرة يا كوليت. اعترف أني ربما أكون قد بالغت قليلاً في إظهار اهتمامي بها. لكنها الآن في طريقها الى الولايات المتحدة. هكذا اعترافي يا حبيبتي. كنت أعلم أن قلبي لا يمكن أن يكون إلا لامرأة واحدة، عارية الخصلات وحلوة الطباع. أحببتك يا كوليت منذ الليلة الأولى التي عدت فيها الى كنغزلا.»

والوله يدها التي كانت تداعب شعره ليعانقها بحنان.

«شكراً لك يا دارت. لماذا رغبت في بكل هذا العذاب؟ لو تعرف كم عانيت في الأسابيع الماضية.»

وضمها الى صدره بقوة، يريد ان يحمي حبه الصغير من أي ألم.

«كان علي ان امنحك بعض الوقت لتمنحني صدق عواطفك تجاهي. لكني لم استطع الصبر اكثر من ذلك. انا لم اكن ابداً بارعاً في الانتظار. نحن لبعضنا منذ ولادتنا. الطبيعة كلها كانت تنتظر هذه اللحظة. انت جزء مني يا كولي. جزء من قلبي ومن عقلي».

وقرأت السعادة في عينيها الخضراوين. كم تحبه. دارت... رجلها

«وانت ايضاً جزء مني يا حبي الوحيد. ها انا اعترف لك بشعوري فلا تستغل الفرصة لتمارس سيطرتك علي».

وعادت تغرق وجهها في كتفه. ولم يتحركا من مكانيهما لحظات طويلة. استغرق دارت في تأمل جمالها لكنه أفاق اخيراً من نشوته.

«فلنعد الآن الى ريال وبربارة. سنخبرهما ما يتوقعان سماعه».

فأجابته بمرح:

«بأني سأعود الى المنزل اخيراً».

ابتسم لها بحنان... وقبّلها.

«لا يا حبيبتي. سنخبرهما انه سيكون لكنغارا سيدة جديدة، وان مقاطعة كينغ تنتظر عروسي الجميلة».

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 46

صَرخة البَراري

بعد اغتراب طويل عن نفسها وعن أرض طفولتها وأحلامها، عادت كولبي أخيراً الى جذورها... الى أرض كنجارا التي تحتضن في ترابها كل عظمة وأساطير القارة الاسترالية، والى ابن عمها دارتلاند كيلغ الذي يخاص أرضه صلابة وعنفواناً. كان جزءاً منها ومن أحلامها. المثال الذي كانت دائماً تتطلع اليه وهي طفلة. لكنها لم تعد طفلة الآن؛ ولم تعد كذلك الفتاة الوحيدة في حياته. فهل تصمد براءتها أمام اغراء وجاذبية منافستها روشيل تينانت؟ ام تعود كولبي الى الاغتراب عن نفسها عندما تصطدم أحلام طفولتها بحقيقة كونها لم تعد طفلة؟